

الخروج من... المطائر في الأمراء

تأليف

أبي بكر العدني ابن علي بن أبي بكر المشهور

جميع الحقوق محفوظة للـ مؤلف

الطبعة الأولى

ربيع الثاني ١٤٢٢ هـ / يوليو ٢٠٠١ م



المقدمة

بواعث
التأليف

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، وبعدُ فقد كان الانتقال من عالم الكبت والإرهاب إلى فضاء الحرية والتعبير النسبي أهم عوامل الكتابة، إضافة إلى أن العديد من ملاحظاتي التي سجلتها في عدن إبان دراستي واحتكاكي في محيط عملي كانت قد أثّرت فكرة الكتابة في هذا الشأن، وكنت خلال عملي ودراستي في جنوب الوطن أشعر بثقل الكابوس القابع على الأمة كلها من خلال معاناة جنوب الوطن وأهله، وخاصة بعيد انكشاف العورات الإلحادية على حقيقتها، وانخداع قطاع واسع من شباب الأمة بها.

وبطبيعة الشاب الطموح الذي يرغب في صنع موقفٍ ما عندما يجد في ذاته الاستعداد؛ كان طموحي أن يتحقق للأمة الإسلامية «بعض أمانيتها الواعدة» من خلال مجريات التحول.

ومع مزيد احتكاكٍ بالتحولات وعواملها ورموزها أيقنتُ أنَّ المسألة أكبر من حجمٍ مدركاتِ الذهنِ القاصر.. وأن هناك وقتاً طويلاً قد هُدر من عمر الأمة في الانحدار.. وأنه من الصعب جداً أن يسير المرء عكس التيار.. فكان لابد من محاذاته.. مع عدم الوقوع في تـمـوجـاته..

وقد سجلتُ مذكراتي الشخصية عشرات الملاحظات المعبرة عن هذه اللواعج والرغبات، منها ما كان نثراً، ومنها جاء شعراً.

وقد كنتُ إبان مرحلة التحولات السياسية والاجتماعية في الوطن أحد شباب المنطقة المندفعين بحماس نحو التحول والتغيير استجابةً للظروف المحلية والعالمية، دون هوية سياسية أو انتماء عقائدي، وقد كان والدي باعتباره أحد رجال الدعوة الإسلامية ومعلماً شرعياً لدمواد الإسلامية في البلاد؛ كان حماسه للدين وتطبيق الشريعة عاملاً مساعداً على الاهتـمام بشأن التحولات من عصر الاستعمار إلى عصر الاستقلال، وكنا جميعاً نجهل حقيقة الاستعمار، ونجهل ما تخططه الدوائر من سياسة الاستهتار، بل كان يجهل هذه الحقيقة كبار الأحرار في مسيرات التحول.

وكنتُ أشعرُ بمسؤوليَّاتي نحو الدين والإسلام كثراتُ ألفتُ الكلام عنه والدفاع عن مبادئه منذ نعومة أظفاري، بل كان حرص والدي على تربيـتي بطريقته الخاصة دون السماح لي بالدخول في خضم المعركة المعرفية المدرسية أعظم الأثر في تركيبات ذاتي النفسية.

ولما كانت سياسة التحولات قائمةً على خداع الشعوب وتضليلها؛ فقد كنا نسمع ونقرأ الشعارات ونتفاعل معها على أساس التفاؤل في التغيير إلى منهج إسلامي يعيد الحق إلى نصابه.

وهكذا كان السياسيون يقولون، وهكذا يُفسّرون قراراتهم في أغلب الأحيان، وكان والدي في أحيان كثيرةً يحسّ رائحة الزيف المغلف بالإسلام فيحذرنا من مغبة الانطلاق في تيارات الحماس، وفي بعض الظروف قد يلجأ إلى العقاب، وخاصة عندما رأى شكاوى العديد من شباب المرحلة على أسلوب تربيته لنا، وبدؤوا يـتمرحلون في نقد القضايا الدينية، ويفسرون مواقف الدين بالتحجّر والكهنوت والرجعية.

وقد حاولتُ أن أضع الكثير من انطباعاتي المتدرجة بتدرج المراحل في كتابي «فيض الذكريات»^(١) وهو المجموع الأوسع لذكريات حياتي الخاصة بدءاً من مرحلة الولادة حتى الخروج من الدائرة الحمراء، والذي يمثّل هذا الكتاب الشطر الثاني منه، وقد تضمن بطريقة السرد القصصي مرحلة الاستعمار، وما حصل بعدها من التحولات والتغيرات في مرحلة الاستهتار^(٢).

التمرحل
الذاتي
للكاتب في
المفردات
والمعاني
وأسلوب
التعبير

وأعتقد جازماً أن حصيلة المعارف تنشأ من لفيف الاطلاع والاحتكاك بالآخرين، وتشحذها بعد ذلك المواهب والاستعدادات وأساليب التنشئة والطبيعة الفطرية التي يهيئها الله لعباده كي تنفّذ في هذا الوجود أمراً معيناً، وهدفاً محدداً هو تدبير الله.

وكانت غاياتي منذ صغري الاستزادة في المعرفة والتحصيل العلمي بغير حدود، إلا أن زاوية الارتباط بوالدي وجّه هذه المعرفة

(١) الشطر الأول منه بعنوان «الحفر على جدار الذاكرة.. رحلة الحياة بين

الواقع والقواقع» والشطر الثاني هذا الكتاب .

(٢) يقصد بمرحلة الاستعمار مرحلة امتداد السياسة البريطانية في عدن

وال محميات وما أثّرت في الواقع الاجتماعي والاقتصادي، وبمرحلة

الاستهتار مرحلة ما بعد الاستقلال وكشف الجناح الإلحادي أقنعة الحرب

ضد الإسلام، ويعتبر هذا المصطلح -مرحلة الاستهتار- من اختيار المؤلف

لهذه المرحلة، ويعبر عن الصورة الغريبة التي مثلها منظرو المرحلة في

استهتارهم وعدم مبالاهم بالتقاليد والأعراف والعلاقات الاجتماعية

المتوارثة وثوابت الدين الإسلامي، اقتداءً بنظريات الشيوعية العالمية التي

كانوا يتحدثون باسمها.

والتحصيل إلى نماذجٍ شرعيةٍ ودينيةٍ وسلوكيةٍ محدّدة، ومن خلال هذا الارتباط الفريد بين إخواني كان يُقَوَّلُ توجُّهاتي وسياسة ذاتي نحو هدف منشود في ذهنه، فإذا رأى مني الانطلاق في المعارف العلمية لغويةً وقرآنيةً وفقهيةً كان يفرح ويزداد سروراً ويشجعني على ذلك، وقد يبسط لي باب الترغيب بالهدايا المغربية، وإذا ما لاحظ مني الانصراف إلى مدارس العصر والعلوم الأجنبية كاللغة الإنجليزية مثلاً أو ما لا حاجة لي به في مسيرة الطموح الموجّه بيدي الامتناع وعدم الارتياح.

وبالطبع كانت مسيرة الارتباط مع سيدي الوالد هي أطول مرحلة حَشَتْ ذهني وعقلي بال معرفة، وخاصة أن مكتبتي كانت غنية بال مؤلفات وال مراجع، ومثل ذلك المجالس العلمية ليلاً ونهاراً في المدرسة والبيت وفي أوقات الصباح وال مساء.

ولما جاء عصر التحولات -وكنت حينها في أوج مرحلة الشباب- فوجئتُ بعدم جدوى دراساتي الذاتية ذات الارتباط بال محتمل وال مكتبة لدى أهل المدارس وحملة الشهادات، وكدتُ أن أُحْبِطَ أمام جيل المدارس الحديثة، لولا أن طرأت فكرة الانتساب لصفوف المدرسة الحديثة لحوز الشهادة المعتبرة لدى أشكال التربية والتعليم.

وأثناء هذه المعركة المعرفية للحصول على الشهادة هبت رياح الانتفاضات ورحل والدي من اليمن إلى السعودية نافذاً بجلده من إرهاب العصابات الإلحادية، واستأذنته في مواصلة دراستي العلمية في المدارس الحديثة فأذن لي عن طريق الانتساب، فتجاوزتُ خلال

أعوام عدة مراحل حتى بلغت الجامعة، وخلالها تعرضت للكثير من الإرهاصات النفسية والاجتماعية؛ ولكنها مننت علاقتي بال معرفة حتى أكملت مرحلة «الدبلوم في اللغة العربية والتربية وطرق التدريس» .

وكانت هذه المرحلة ذات تأثير بليغ في حياتي المعرفية وفي تطوير القاموس اللغوي والفكري وفي معرفة الخطوط الأولية التي تنطلق منها سياسة الأعداء ضد الدين وأهله، وعرفت من خلال تعمق الملاحظة ومن تباين الأطروحات الفكرية التي يطرحها المتخصصون بأن هناك «حرباً خفية ومنظمة» ضد الإسلام بعمومه، وبقيت هذه الأحاسيس تحتاج ذهني طيلة مرحلة دراستي الجامعية وما بعدها حتى سفري إلى الخارج، وتلزمي أن أضع شيئاً، وأن أقول شيئاً في وجه الشر المقنن. ولهذا جاءت بعض الأشعار معبرة عن هذه الحالة^(١)، وكذلك بعض

(١) كآيات في مقولات عوض الحامد التي قال فيها:

وغداً ستنتصر الطبيعة..

وسيسقطُ اللاهوتُ مركبةُ الغزاة..

قلتُ فيها بتاريخ ٢٧ ذي الحجة ١٣٩١ هـ . (١٢/٢/١٩٧٢ م) بأحور:

يا مَنْ كَفَرَتْ وَقَلَّتْ: [تَنْتَصِرُ الطَّبِيعَةُ]..

[وَلْيَسْقُطِ اللاهوتُ مركبةُ الغزاة]..

وديانةُ الإسلامِ..

يا أغنى الأنامِ..

تَلُوكُهَا لَوَكُ اللَّبَانَةُ بَيْنَ أَشْدَاقِ الْقَطِيعَةِ..

وأُتِيتُ تُسمَعُنِي..

وَنُصَمِّعُ أَمَّتِي..
أَفْكَارُكَ الدُّنْيَا الصَّرِيحَةُ..
وَتَقُولُ: لَا إِيْمَانُ..
لَا قُرْآنَ.. لَا رَبَّ نُطِيعُهُ..
لَا غَيْبَ لَا مَلَكُوتَ..
وَلَيْسَ قُطْبُ الْكَهْنُوتِ..
وَالْقُرْآنُ فِلْسَفَةٌ مُضْبِعَةٌ..
الْعِلْمُ يَرْفُضُ عُقْدَةَ الْأَخْلَاقِ..
وَالرَّزَاقَ..
وَالْآتِي الْقَرِيبَ..
وَسَاعَةَ الْهَتِكِ السَّرِيعَةِ..
...

[وَعِدًا سَتَنْصَاعُ الطَّبِيعَةُ لِلْجَدَلِ]..
أَيُّ جَدَلٍ؟!..
جَدَلُ اللِّسَانِ الْقَاصِرِ الْمَهْزُولِ..
فِي يَمِّ الْحَيَاةِ..
جَدَلُ التَّمَحُّورِ فِي الْمَضَامِينِ الدَّخِيلَةِ..
وَالْعَمَالَاتِ الرَّذِيلَةِ..
وَالْغَزَاةِ..
وَكَفَرَتْ فِي فَخْرٍ..
وَتَسْرُدُ لِي أَقَاصِيصًا مُثْبِرَةً..
الْكُونُ كَيْفَ أَتَى وَهَلْ أَبْدَى ضَمِيرَهُ..
وَالْغَيْبُ وَالْأَشْبَاحُ وَالرُّوحُ الْأَسِيرَةُ..
أَسْطُورَةُ الدِّينِ الشَّهِيرَةِ..
...

قُلْ لِي -هداك الله- يا رَبِّ المفاهيمِ الأَجيرة..
يا مَنْ عرفتَ الكونَ..
والتاريخَ.. والسُّدْمَ الكبيرةَ..
ما بَيْنَ فَيْشَاتٍ وَبِيرَةٍ..
فتقولُ في الدِّيَانِ..
والأديانِ..
والكتبِ المنيرةِ..
وشرِّقتَ بالإلحادِ والأوغادِ..
مِنْ زُمرِ الفسادِ..
عناصرِ المسخِ الحقيرةِ..
فإليكِ يا أوهى ضَميرٍ في الوجودِ..
وإلى طوابيرِ الجحودِ..
وعسكرِ الجهلِ المدججِ في الجزيرةِ..
كَبَلْتُمُ الإنسانَ بالوعيِ المضرِّجِ بالدماءِ..
وأهَنْتُمُ التفكيرَ مثلَ الإِنْتِماءِ..
أَرْغَمْتُمُوهُ على التَّمَرُّدِ والصِّراعِ..
وَلَبَذَرِ أسبابَ التَّزاعُ..
حتَّى النُّخاعِ..
أَسَسْتُمُ مجدًّا على مليونِ مَسْحُولٍ..
ومقتولٍ.. وأرملةٍ..
وجمهرةٍ الجِباغِ..
...
وغدًا كما قُلْتُمُ..
[وغدًا سينصاعُ الجدَلُ]..
لمبادئِ الإسلامِ والإيمانِ..

الردود الفكرية على بعض مقولات المفكرين والكتاب^(١).

في حُلٍّ رَفِيعَةٍ..
ويذوبُ فِكْرُ الْمُعْرِضِينَ..
المارقين..

شرائح الغزوِ الوضيعة..
وغداً سَيَنْدُبُ حَظَّهُ المخدول..
في سَقَرِ القطيعة..

...

سبحانك اللهم هذا مُنْكَرٌ..
اغْفِرْ لَشِعْري أن يُذِيعَهُ..
أنا مسلمٌ..
أَعْتَرُ أَنِّي مسلمٌ..
فلتُحْنِي يا رَبِّ مَأْمُونِ الخديعة..
أنا فيك يا مولاي أَثَرُ قُوَّتِي الدنيا..
لِتُلْهِمَنِي التَّقَى..
والإِتِّكَالَ على أَحاجِيكَ المنيعة..

...

واهدِ الرِّفاقَ فَإِنَّهُمْ..
في أَبْحَرِ سُودٍ مُرِيعَةٍ..
صَنَعُوا القَطِيعَةَ..
وتَبَوَّؤُوا عَرْشَ الخراب..
لأَرْضِنَا الخَضِرَا البديعة..

(١) كمدونات في الرد على الدكتور صادق العظم، وتعليقات على قصيدة

«الكتابة بالسيف» وقد نقلنا عنهما في ثنايا كتابنا «الرموز والأصابع»، و

وفي تلك المرحلة كنت أكتب آرائي وأفكاري من زاوية المدرسة التي رُبيتُ عليها وعاصرتها في حياتي الدينية، ولا سم أكن على علم واسع بما يدور في بلاد العالم الإسلامي من صراع آخر باسم الإسلام ضد أهل الإسلام إلا شيئاً ضئيلاً لا يصل إلى حد القطع والتأكد.

ولهذا كان لا بد لي بعد سفري من الوطن إلى خارجه أن أمرّ ببرزخ معرفي ونفسي خطير.. وخطير جداً.. لأضع كل معرفتي ودراستي في محك الاختبار وجهاً لوجه أمام مدرسة دينية واجتهادية أخرى جعلتني أحتار كثيراً في أمر الواقع المتنوع، وأبدأ مسيرة معرفية جديدة تجمع من حصيلة المراحل التي مررتُ بها في حياتي وبين ما أسمع وأقرأ وأشاهد في المجتة مع الجديد.

وكان من قدر الله ولطيف تدبيره أن اهتد به والدي بما يراه من ملاحظاتي ورغباتي العلمية وأدخلني تجربة هامة في المهجر، حيث كلفني منذ وصولي بالإمامة والخطابة في المسجد الذي كان يؤم الناس فيه، وحينها دخلتُ تجربة هامة جداً وخاصة في معركة المعارف الشرعية داخل مجتة مع ديني يختلف عن سابق تجربتي الأولى في كثير من القضايا والمسائل.

فبدأتُ في إعداد الدروس الفقهية والحديثية وإعداد خطب الجمعة بأسلوبٍ مدروسٍ ومتزنٍ يجمع بين نضاعة الدعوة التي أمثلها ويمثلها

«لا يا نوال» رداً على ما كتبه نوال السعداوي «الوجه العاري للمرأة المسلمة».

أبي وبين متطلبات الواقع ورموزه دون إفراط ولا تفريط.

وخلال هذه الفترة التزمتُ القراءةَ والطلبَ العلمَ في مجالس شيخنا الإمام العلامة الحبيب عبدالقادر بن أحمد السقاف كل يوم من أيام الأسبوع ما عدا الجمعة، فكان لهذه المجالس وما يدور فيها من مناقشات وقراءات وإضافات علمية ومواقف عملية من شيخنا وعموم العلماء والأدباء وعامة الناس أثرٌ عميقٌ في إعادة صياغة المعرفة العلمية والعملية لدي.

وكذلك كثرة المراجعات والقراءات والاحتباكات في شروح الحديث واللغة وكتب الفقه وغيرها. كلُّها ساهمت في إدخال التجربة الذاتية طوراً جديداً ومنتامياً كشف للعقل والقلب كثيراً من أسرار الحياة الإيمانية. وساعدت رغبتي الذاتية في التدوين والكتابة على بدء مرحلة جديدة من التأليف والتصنيف في شتى المجالات التي طرقتها منذ ذلك الحين إلى اليوم.

مرحلة
التأليف
كانت
مقرونة
بمرحلة
التشطير
قبل
الوحدة
المباركة

ولذلك يلاحظ القارئ المدقق بعض عبارات الرواية ذات المدلول التشطيري كقولي: جنوب اليمن، أو: في الشمال، أو غير ذلك، فالأصل أنها لا تمثل حالة المرحلة الراهنة، وإنما تشير إلى وقتها الذي كانت فيه، وقد أزلنا العبارات التشطيرية في كافة المواقع التي أمكن إزالتها وبقيت في مواقع تُؤمى إلى تلك الحالة الماضية حكاية عنها فقط وكشاهد على سلبية المرحلة .

**ملاحظات
على بعض
النقاط**

وقد وردتْ بعضُ التعليقات على بعض المظاهر السلبية التي شاهدهُها خلال انتقالي من عدن إلى الحديدة وما جاورها، وكانت الحديدة حينها لا زالتْ غيرَ متكاملة النظام والانضباط، فالأصل في أوضاع البلاد ما هي عليه الآن، وأما ما كتبناه في هذه السيرة الذاتية فدلالته على مرحلةٍ قد انقضت ولا علاقة لها بالواقع المعاش.

- وردت الإشارة إلى كلمة « الدوائر الحمراء والخضراء »، وكان عنوان الكتاب « الخروج من الدائرة الحمراء »، وهذه المدلولات إنما هي اختياراتٌ لا تتجاوز الكتاب ذاته، ولا علاقة لها بواقع المنطقة التاريخي أو المعاصر. فالـ مقصود « بالدائرة الحمراء » موقعُ الخوف والدم والقلق آنذاك، و« الدائرة الخضراء » موقعُ الاطمئنان والهدوء والاستقرار النسبي للكاتب آنذاك، ولا تسحب هذه التسمية نفسها على أبعد من ذلك إطلاقاً.

- هذه الأحداث جزءٌ من قصة حياةٍ متكاملة، بدأت بمرحلة الطفولة وانتهت بمرحلة الوصول إلى أرض الحجاز بعد الخروج من الوطن. وسيلحقها إن شاء الله جمعٌ خاصٌ عن السنوات العشر الأولى التي قضيتها في العربية السعودية، يحمل بين دفتيه واقع التجربة الذاتية في تلك الزاوية من العالم.

كما سيلحقها فصلٌ آخر عن مرحلة الصحوة، ومرحلة العودة إلى الوطن بعد سفر طويل، وما ترتب على هذه العودة من تحولاتٍ وتغيّراتٍ في الفكر والـ مواقف والتصورات. والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير للجميع.

عدن - الجمعة

١٤٢٢/٤/٢٩ هـ .

٢٠٠١/٧/٢٠ م

مدخل ..

بسم الله الرحمن الرحيم . وأحمده تعالى على ما أولى من نعمة الإطلاق
بعد القيّد .. وحفظ القلب من شرّ غوائل الزمّان والكيد .. وأجرى الأسباب على
غير متوّقع .. وانفعلت الظروف انفعالاً أخرج العقل عن مفطور الطبع في
درجة اعتياده .. مُطلّقة كوامين النفس إطلاقاً غير ذي قياس .. تندفع بها شروط
الحركة عبر الحدود ..

فأفاقت الجوارح على عالم مديد .. وبُعِدَ مكانيّ جديّد .. وتَدَقَّقَ في القلب
دافق الحيويّة مهتّزاً بمطر الاطمئنان .. ما أعجبَ هذا الإنسان !!
فإلى القارئ أرفُء لواعج المعاناة .. حيثُ كانت تجربهُ المرارة .. ولم تكن
معاناه ذاتُ شبه في غير هذه القناة الشائكة .. إذ اختلف الأفق الجنوبيّ عن
آفاقنا المعنّمة الأخرى .. فكان الاحمرار قانياً أكثرَ من حمرة الدماء ..
والأشلاء ممزّقة تحت أديم السماء .. وصوت المذياع يصيح:
سحق الكهّوت واجب ..
سحق الإقطاع واجب ..
تحرير المرأة واجب ..

وتزاحمت الواجبات مع الوجبات .. فكان ما كان .. واضطّر الكثيرون أن
يشترّوا ماء الحياء والحياة بالخروج من الأوطان ..



القِسْمُ الْأَوَّلُ

مِنْ عَدَنِ إِلَى

الْحُدَيْدَةِ

التقرير الأول

وَتَرَكْتُ الدَّائِرَةَ الْحَمْرَا
أَتَوَاتِبُ تَحْتَ خُيُوطِ الْفَجْرِ .
أَشْبَاحُ تَأْسِرُ ذَاكَرَتِي
وَزِحَامُ يُعْتَمِ أَبْصَارِي
أَيُّوْمُ نُزُوحًا عَنْ وَطَنِ
لِحَظَاتٍ دَقَّتْ عَنْ وَصْفٍ
وَتَسَمَّيْتُ اسْمًا وَهْمِيًّا
وَكِتَابُ اللَّهِ عَلَى كَبَدٍ
جَاوَزْتُ الْحَقْدَ الْمُتَنَامِي
جَاوَزْتُ سُجُونَ زَبَانِيَّةٍ
فَقَتَلُوا فِي النَّفْسِ أَمَانِيهَا
رُغْبٌ يَمْتَصُّ مُوَاجِدِي
أَطْمَاحِي كَادَتْ تَقْتُلُنِي
وَدَفَنْتُ بِطَاقَةِ إِمْكَانِي
أَمَنْتُ بِأَنِّي مُوْهُوبٌ
قَدَمِي تَتَحَدَّى مَرْتَبَتِي
وَأُدارِي نَفْسِي عَنْ نَفْسِي
كَانَتْ سَاعَاتِي تَسْبِغُنِي
أَتَخَطَّى الْجَرَحَى وَالْأَسْرَى
رِ لَأَعْبُرَ رَسْمًا مُقْفَرًا
وَأَمَانٍ تَبْعَثُنِي حُرًّا
قَدَمِي تَتَعَثَّرُ فِي الْأُخْرَى
مَنْ عَلِمَ صَبِيئَتَهُ الصَّبْرَا ؟
حَمَلْتُ أَحْلَامِي .. كَالْإِسْرَا
وَلِسَانًا جَرَّحَهُ الْإِطْرَا
مِنْ هَوْلِ الْكَبْتِ غَدَتْ حَرًّا
وَتَرَكْتُ مُوَاخِرَ السَّكْرَى
مَنْعُوا الْإِحْسَاسَ عَنِ الْإِثْرَا
مَسَخُوهَا مَسْخَا لَا يَبْرَا
وَيُشْبِخُ الْبَاءَةَ وَالْفِكْرَا
فَحَفَرْتُ لِأَطْمَاحِي قَبْرَا
وَشَهَرْتُ بِطَاقَتِي الْأُخْرَى
سَلْبُوهُ صِنَاعَتَهُ الْكُبْرَى
وَالْعَزْمُ يُغَالِبُ مُضْطَرَا
أَتَقَوِّعُ عَمْدًا لَا عُذْرَا
فَأَشِيدُ سَوَابِعَهَا جِسْرَا

كانت أوقاتي تَمْنَحُني
وخليجُ الشَّوقِ يُسامرني
ومدائنُ حُبِّي تَصْهَرُني
عجباً.. قد صارت -يا لَهْفِي-

وهجاً تَرْفُضُ له العذرا
والبدْرُ يُعاقِرُني خمرا
فأصُوغُ الكونَ لها شعرا
أحلى الساعاتِ لنا ذكرى



استهلال..

ليس من السهل اتخاذ قرار بالهروب من المألوف.. فكيف بالخروج عن الوطن ؟ وليس أيضاً من السهل استغلال القوانين وتحديها.. إلا بسيف ذي حدين..

إنه أمرٌ يجلبُ التدميرَ أنْ تُلَهَتْ تحتَ سِتارِ الظلامِ بقدميكَ طوعاً مع عنصرٍ غريبٍ.. عيونٌ تكادُ تخرجُ من محجريها لشدة ما حَدَقَتْ في الظلام.. تطغى مساحةُ سوداءٍ على بياضها فتكادُ لا ترى إلا سواداً حالكاً..

دخانٌ كثيفٌ يغمرُ وجهاً لم يَبْقَ عليه آثارُ إنسانٍ.. إنما هو قطعة بلاستيكٍ مرنٍ على هيكلٍ عظميٍّ..
كفٌ يشبهُ جلدَ ضَبٍّ عجوزٍ يخالُ إليك وأنتَ تمُدُّه بمبلغِ المالِ..
ورثاتُ ضحكٍ جافةٍ.. وكأنها صدرتَ عن تجويفٍ جافٍ لم يُبلِّله الرِّيقُ مدىً من الزمن..



البداية..

حدَّقَ في وجهي مراتٍ ومراتٍ.. وهو يقبُعُ على كيسٍ طعامٍ أُسْنَدَ في ركنٍ من أركانِ الحانوتِ ، ثم طأطأ رأسه يُفكِّرُ .

- سلم للرجل المبلغ..

هذا ما قاله لي الوسيطُ الذي رتَّبَ لنا اللقاء.. وأخرجتُ المبلغَ من تحتِ الحزامِ ، ودفعتهُ له دفعةً واحدةً.. قرأ ملاحِي قراءةً متفرِّسٍ متَ حمرِّسٍ.. ثم قال:

- أمتأكدُ أنتَ من المبلغِ؟؟؟

- نعم.. متأكد.

دَسَّه في جيبٍ يتَّسعُ بمقدارِ اتِّساعِ نظراتِهِ.. وربَّتَ عليه بكفه ليتأكدَ من استقراره

في غيابة الجُبِّ.. نَفَضَ مَقْعَدَتَهُ واستوى قائماً وأشار لي أن أتبعه بسرعة.. وهمس في أذنٍ وسيطه.. أن أكون حَذِراً.. وأن أحرصَ على وجود مسافةٍ بيّني وبينه خلال ملاحقتي لِسِيرِهِ.. وعدل حمي أين أتجه.. وأين أقف.. و.. و.. ولم محتُ الرجلَ قد جاوز الباب فسِرْتُ خلفه ونبضاتُ قلبي ترتفع.. ورثتاي أشعرُ أنهما صارتا أكبرَ من معتادهما..

أيُّ مغامرةٍ هذه ؟ وأيُّ مصيرٍ أنا أتجهُ إليه ؟
لقد تركتُ أخي هناك بجوار المسجد.. قلتُ له : انتظري ربعَ الساعةِ إلى نصفِها.. إذا لم أَعُدْ إليك فاجزم بأنني قد غادرت المدينة الصاخبة..
- وخذ.. هذه ساعتني.. فلن أحتاج إليها..
فالذين يرحلون بمثل هذه الصورة لا يحتاجون إلى عقارب الساعة.. وأسأل الله أن لا يكون آخر العهد بيننا .

طال وقوفي بجانب الدَّرَبِ.. وطال صمتي وتأملتي.. وبدأ الشُّكُّ يتسرَّب إلى قلبي..
أين الشخصُ الذي أوصلني إلى هنا ؟ ذهب ولم يَعُدْ ؟
لا شكَّ أنها خيانة.. خديعةٌ للاستيلاء على المبلغ..
لا.. لا.. إن الوسيطَ رجلٌ أمينٌ فيما يظهر.. لا أعتقدُ أنه عنصرٌ يخدع الآخرين..
ال حارةٌ يتفحصون وجهي.. لا بد أن أخفي هذه الحقيبة.. ربما شك أحدهم عندما يراها في يدي.. لا بد أن أجلسَ عليها.. فهو خيرٌ من تركها مكشوفةً للناظرين .
أف.. هذه سيارات الأجرة تُرسلُ أشعَّتَها الكاشفةَ كلِّ ما مرَّت هنا أو هناك..
لعل هذا الرجلَ الواقفَ بجوار السيارة الواقفةِ يرقُبُه نبي.. لا أعلم حقاً : هل سأسافرُ الليلة أم سأودعُ في غياهبِ السِّجْنِ ؟
لحظاتٌ رهيبَةٌ تمرُّ بالنَّفْسِ القَلِقَةِ ، وأمواجٌ من الخواطرِ تَعْبَثُ بالقلب والعقل
وال مزاج.. وصلتُ سيارة « لاندروفر » قديمة الميكل ووقفت قريباً مني.. أخذتُ أتعرفُ على السائق.. فإذا هو صاحب المال.. أشار إلي بالنهوض من مكاني والركوب

في السيارة.. رأيتُ في السيارة شخصين قد احتلّا المقدمة ولم يُعَد لي فيها من أمل.. حملتُ حقيبتِي مُستَوْفِزاً وتَسَوَّرْتُ جرائدَ (١) السيارة مسرعاً وكأني أودُّ إخفاءَ نفسي عن نفسي.. وتحركتِ السيارةُ قبل أن أتعرف على مكاني فيها..
سطحُ السيارة تملؤه أكياسُ مرصوفةٌ من السمك المجفف.. « الوَزَف » ..
ولرائحتها الكريهة أثرٌ نفاذٌ يُزَكِمُ الأنفَ ويُخْرِجُ التَّنَفُّسَ..
وأشار إليّ مساعدُ السائق أن أقعدَ على الأكياس السَمَكِيَّة التي رائحتها تجلبُ لي
الصداع.. ولكنه حظي ! فالمرءُ أحياناً لا يملك اختيار مكانه بقدر ما يكون
مشغولاً بأبعاد الاختيارات التي يعيشها.. ولا حول ولا قوة إلا بالله .



الانطلاق..

انطلقتُ سيارةُ « اللاندروفر » تنهبُ الطريق المتعرج نهباً ولكنها ليستِ الطريقَ المعتادة.. إنها طريقٌ قديمةٌ اتخذها أولئك لرحلاتهم الخطيرة.. ومغامراتهم المثيرة.. طريقٌ تخرقُ الصحراء رغمَ وجود العمران.. تستجلبُ للنفس منذ اللحظات الأولى حقيقة الانقطاع عن القوانين ورموزها..
وأشعلَ السائقُ سيجارة.. ثم سرّتِ العدوى للجميع ما عداي.. فأنا لا أدخن..
- أوه.. موقفٌ يجعلني أشعرُ بالزهُو ! أنا لا أدخن !!
ولكن ما هو المردود من هذا الزهُو في أمر كهذا في مثل هذا الظرف الدقيق ؟ ربما
لو دَخَنْتُ لكنتُ أكثرَ انسجاماً مع سحائب الدخان ؟! فقد تُجمَعُ القلوبُ في
مجة مع كهذا غمره دخانٌ وفُقاغُ كأسٍ وقصفٌ ولَذَّة..

(١) هي حوض السيارة ذي الأعمدة الحديدية .

إذن فلربما كان هذا قدرنا؟! ل ماذا الخوف ؟
وقطعَ شَرِيطَ حَوَاسِي حديثُ المرافق للسائق ، والذي كان يقبع على متن السيارة
من أعلى وينادي :

- أَدْخُلْ بِنَا إِلَى الْمَعْرُوب^(١)!! عَرِّجْ بِنَا عَلَى الْبَيْتِ..

ودارت السيارة نصف دورة أدخلتنا بين كُثْبٍ متناثرة يظهر بينها كوخٌ صغيرٌ
تنتشر حوله الأغنام والأبقار وكلبٌ لا يَكُفُّ عن التُّبَاح.. وكأنه أدرك أن في السيارة
غرباء..وتوقفت السيارة.. وقفز المساعد إلى الأرض واختفى خلف الكوخ.. ثم
نزل السائق وفتح لنا بعض أكياسٍ من اللبن المقلب لشرب.. سل مني كيساً..
وسل من رفاقي كيساً آخر.. ثم ابتلع وحده كيساً.. وجاءنا طفلٌ صغيرٌ بإناءٍ فيه
ماء.. وشربنا منه حتى ارتوينا.. والطفل بين الحين والآخر يتأملُ فينا ويتفرَّسُ ثم
يَفْرُكُ عينيه.. والكلبُ لا يَكُفُّ عن النباح..

واستؤنفت الرحلة وصوت الكلب يلاحقنا عبر الصحراء.. ويُبْثُّ في نفسي شَوْماً
ورؤيةً عتةً ماء.. ل محتُ سيارةً أماننا تسيرُ ببطءٍ ويظهرُ ضوءُها الخلفي أكثرَ
احمراراً.. فشعرتُ بالخوف حيث ذهب بي الظنُّ كلَّ مذهب.. إلا أن السائق بادرنا
قائلاً :

- تلاحظون السيارة التي أمامكم ! إنها تابعة لنا.. ستسير أماننا على
مسافة ، فإذا صادف سائقها أيَّ أمرٍ مريبٍ سيصدر إشارةً لي.. وسأطفئ
الأنوار لتقفزوا أنتم إلى الأرض والاختفاء..

- ما هي إشارتكم حتى نتعرف عليها .. فقد لا تكون مُنْتَبِهاً أنت عندما
يصدر صاحبك الإشارة ؟

- سيدوس على الفرامل.. وسيسطع نورُ السيارة الخلفي مدةً طويلةً
ولن يتحرك..

(١) المعزوب في اللغة الدارجة هو الكُفْر أو القرية الصغيرة .

ثم صمت قليلاً.. وقال :

- لاحظوا معي السيارة الأمامية.. أنتم لا تخافون.. هذه مهنتنا..
لقمة عيشنا..

واجترّ نفساً طويلاً من سيجارته المتأكلة حتى بدا لي تحت ضوءِ السيجارة الخافتِ
تجويّفُ خَدَّيْهِ كالْبُئْرِ.. ثم أَرْسَلَ دُخَاناً كثيفاً غمرَ مقدمة السيارة.. وسَعَلَ سَعَالاً
حادداً ويدها ترتجفان على المقود.. وقال مخاطباً رفيقه :

- تسلّق السيارة.. لاحظ الطريق ولاحظ السيارة الأمامية .

ثم صمت..



نحو البحر الأحمر..

وجوّم رهيبٌ تختلط فيه رائحةُ السمكِ المجففِ مع روائحِ العرقِ ودخانِ السجائرِ
والبترولِ وغبارِ الطريق.. بينما صوتُ السيارةِ يَعْرِفُ لَحْناً جنائزياً رهيباً.. وكأنه فُلُكٌ
يسير بنا إلى الآخرة..

وغيرَ السائقِ اتجاهِ السيارةِ نحو البحر الأحمر..

يا للغرابة !! إنها طريقٌ متعرجةٌ.. كنا نغوصُ في عُمقِ الصحراءِ حتى ظَنَنْتُ أُنِي لَنْ
أرى بحراً في هذه الرحلة.. وها نحن في طريقنا إلى البحر.. أين سنَتَجِه ؟ وأيُّ طريقٍ
هذه؟

أشاهد خلفي مدينةَ « البريقة » ظهرت من جديد.. وأضواؤها تكاد تختفي رويداً
رويداً.. وها هي أشعةُ معسكراتِ الجيشِ في « صلاح الدين » تبدو من بعيد..
وتتوارد على ذهني أسئلةٌ مُلِحَّةٌ في هذا الموقفِ العصيب :

كيف لو رأى المراقبون سيارتنا وهي تشق الطريق الرمليّ بصعوبة ؟؟

- أخبروهم أننا ذاهبون إلى رحلةٍ عاديةٍ على شاطئ « عمران » مع هذا.. هذه شنطتي شنطة رحلات.. وأنتم ماذا تحملون ؟ أليست ثياباً قليلة ؟ إذن فنحن في رحلة عادية مع صاحبنا هذا وغداً جمعة.. ونحن فضّلنا قضاءها في « عمران » ..

وسكتَ الرَّكْبُ عن الحديث.. ولست أدري أكان رضى عنهم بالفكرة أم رحلة جديدة في محاسبة الذات.. واستدعاءً لل مبررات ؟
حقيقتي.. ليست حقيقة رَحَلَاتٍ إذا دُقِّقَ في أمرها.. فحقيقة الرحلات عادةً ما تكون محتوياتها ما يتعلق برحلة قصيرةٍ إلى عمران مثلاً.. إن في حقيقتي من الداخل بعضُ وريقات من العملة التَّقْدِيَةِ لشمال الوطن.. سيسألوني : كيف حصلتَ عليها؟ ل ماذا حملتها .. أيُّ حاجة لنقد شمال الوطن في عمران؟
أفّ لهذه المخاطر.. إنها مزعجةٌ حقاً.. لَهْيَ أشدُّ إزعاجاً من هذا الساحل الرملي المغرق.. الساحل الذي تَتَرَجَّحُ فيه سيارتنا يميناً وشمالاً بصورةٍ عنيفة.. تهرب من الأمواج لتسقط في أحضان الرمال.. وتترع نفسها من براثن الرمال لِتَقَعَ في أخطبوط الأمواج..



المرور على الصراط ..

نصفُ ساعةٍ من الوجَلِ والخوفِ والتَّرقُّبِ على ساحل عمران .. عيوننا مُبَنَّةٌ على حركة السيارة التي تسبقنا.. كما ننتظرُ ما قد يحدثُ من خلفنا لو أعلنَ المراقبُ القابُعُ على سطح السيارة أنَّ هناك مَنْ يطلبنا.. واختفى الساحل لندخل في تلال ضخمة من الرمل الكثيف.. تزداد فيها قوة الحركة للسيارة عنفاً وضراوةً لتشقَّ طريقها في صعوبةٍ بالغة.. حتى إنها لتكاد في بعض الأحيان أن تستسلم وتقف..

ذَرَّاتُ الرمل المتناثرِ على جسدي تُسَبِّبُ لي قلقاً وضيقاً.. فهي تـ محتزج بالعرق

المتصبب من وجهي ورقبتي.. وتلتصقُ في جسمي التصاقاً يشعرني بالتَّقْزُرِ من نفسي..
إلى أين نحن متجهون ؟ لا أصدّق نفسي أنني سأُقدِّمُ يوماً على هذه المغامرة.. إنها
مغامرةٌ تعني الحياة على طريق الموت..

ذكرتني بحديث أبي عن الجنة وال مرور على الصراط :
« لا بدّ من المرور على الصراط من أجل دخول الجنة.. فمن نجا دخل الجنة..
ومن أبطأ به عمله تَكرَّدَسَ في النار » ..

وهنا.. في هذه الصحراء.. لا حكم للعمل.. وإنما الحكمُ للحظ والتوفيق
الإلهي.. فمن كان له حَظٌّ وتوفيقٌ حَسَنٌ نجا.. ومن ثَقُلَ به حَظُّه وسُحِبَ عنه أو منه
التوفيقُ وقع في الأسر.. وخَسِرَ نفسه وغيره..

ولماذا هذه المغامرة إذن ؟ أليس مُقامي في بلدي خيراً لي من العيش بلا وطنٍ
وبلا غايةٍ في بلاد غيري ؟ إنه صراعُ شهورٍ وشهورٍ طويلةٍ كنت أتحدى عاطفتي
وأستخدم عقلي وأقيس المسافات والأبعاد والأثرَ والمردود.. وأقارنُ وأحللُ
وأفاضل.. وعدلتُ قراري بال مغادرة مراتٍ ومراتٍ.. ليس بحثاً عن رضا رمزٍ ولا
رغبةً في خدمة سلطة.. ولكن إدراكي مني لذاتي وحياتي ومقامي ورسالتي.. وكل ما
أدخلتُ آرائي مرحلة الاختبار طالَت مرحلة الصراع بلا تفاضل.. وكان التدخلُ
السمائوي والإيحاءُ الفطريُّ والقضاءُ المرسومُ هو المحرُّكُ للدَّفَّةِ المضطربة في أعماق
قلبي.. فكان ما كان..



الروتين.. ثم القرار..

يعتقد البعض أنَّ مسألة القرار لا تحتاج إلى كلِّ هذا التَّؤْلِيف.. وإنما هي مرتبطة بالقناعات الذاتية والعزم على الشيء والتصميم في إنفاذه.. ولكنَّ شرعيَّ الذاتي لا يَأْلَفُ اتِّخَاذَ القرار السريع.. خَشْيَةَ النَّدَمِ.. ورغبةً في استنفاد الدافع الداخليِّ المَجْبُولِ على إمضاء المقدور في عِلِّ سَمِ اللَّهِ.

ولذلك.. فقد سلكتُ طريق «الروتين الإداري» كما يُسمى.. وتدرَّجتُ في مطلبي من مسؤولٍ إلى مسؤول.. من قاعدة المسؤولية الهيكلية في السلطة حتى قمتها.. ومن قمتها حتى قاعدتها.. وكانت هناك في الهيكل المتباين حلقة مفقودة فصَلَتْ بين حلقاتٍ أخرى فتركتها غير متكاملة ولا متكافئة..

لَمْ مَسْتُ فِيهِمْ سُوءَ الْفَهْمِ لِكُلِّ مَنْ يَرِدُ عَلَى الْأَبْوَابِ بِطَلَبٍ خَاصٍّ أَوْ عَامٍّ..

فَسَادَ التَّنَفُّسَاتُ لكَثِيرٍ مِنَ الْمَسْئُولِينَ وَفَقَدَ الثِّقَةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ..

وَخَشْيَةَ التَّرْبُّصِ وَالتَّبَعَةِ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ مَشْرُوعَةٍ أَوْ غَيْرِ مَشْرُوعَةٍ..

حَيْثُ تَحَوَّلَتِ الشَّرْعِيَّةُ إِلَى لَوْنَيْنِ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ :

صُدْفَةٌ مِنَ الصَّدَفِ الَّتِي يَلْقَاهَا الْمَوَاطِنُ خِلَالَ مَرَحِلَةٍ مِنَ مَرَاكِحِ الرِّضَا وَالْفَرَحِ

وَالسَّرُورِ لَدَى رَمَزٍ مِنْ رَمُوزِ السُّلْطَةِ فَيَتَحَقَّقُ لَهُ مِنْهَا مَا لَا يَتَحَقَّقُ فِي أَعْوَامٍ لِغَيْرِهِ..

أَوْ مَعْرِفَةٌ قَرِيبَةٌ أَوْ بَعِيدَةٌ تَطْوِي مَسَافَةَ الْخَوْفِ وَالْقَلْقِ الَّذِي يَخْشَاهُ الرَّمْزُ مِنْ مَوَافَقَتِهِ

أَوْ رَفْضِهِ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ.

لَقَدْ غَادَرَنِي أَبْنَائِي الْأَرْبَعَةُ مِنْذُ عَامٍ كَامِلٍ.. وَأَعْتَقَدُ أَنَّهُ كَانَ بِإِمْكَانِي لَوْ كُنْتُ

أَخْطَطُ لِلْهَرُوبِ وَحَدَهُ أَنْ أَهْرُبَ عَشِيَّةَ سَفَرِهِمْ.. وَلَكِنْ كَانَ فِي نَفْسِي غَيْرُ ذَلِكَ..

فَأَنَا طَالِبٌ فِي مَرَحِلَةِ الْجَامِعَةِ بِالْإِنْتِسَابِ.. وَمُدْرَسٌ لِمَادَّتِي الدِّينِ وَالْأَدَبِ فِي الْمَرَحِلَةِ

الثَّانَوِيَّةِ.. وَأَمَامِي تَنْتَصِبُ مَهَمَّاتٌ كَبِيرَةٌ وَوَأَجِبَاتٌ حَمَلَتْهَا عَلَى عَاتِقِي لخدمَةِ دِينِي

ووطني.. ول سم يَدْرُ بِخَلْدِي آنذاك أَن أَخَذَ قراراً مفاجئاً كهذا.. ومَهَّدْتُ لطلبي مع جهاتٍ مسؤولةٍ في التربية والتعليم ومع غيرها من الجهات المعنية بمثل هذا الأمر.. وفي بعض جيوب هذه الجهات كنتُ أشمُّ رائحةَ العَفَنِ الإداريِّ المريض.. والعُقْدَةِ السُّلْطَوِيَّةِ الفرَعَوِيَّةِ ، حيث كانوا يجابهوني بالرفض قبلَ أَن أَتحدَّثَ فيما أُريد ، وكانوا أحياناً بمنطقٍ أكبرَ من أحجامهم .

قال لي أحدهم : تلك حدودُ الأنظمة ، ويتحتم عليك الالتزام بها كموظفٍ لدى الدولة، ومُنَقَفٍ يُلم بأبعاد القوانين قبلَ غيرك .
أفَّ !! ليتني كنتُ أُمِّيًّا حتى أركبَ القوانين على أساسٍ من الجهل المصطنع.. وحتى لا أسمع هذه العبارات التي تحمل الباطلَ في مضمونٍ من الحق.. بلسانِ استهْمراتِ القولِ المريض .

وحتى رجلُ الهجرةِ والجوازاتِ الأولُ في دائرةِ المسؤوليات المعنية بالأمر قال لي ساخرًا :

أريد أن تسافر ؟!

لا داعي لذلك.. القوانين **لا تسمح لك**..
بعد عودة أطفالك إلى وطنهم يمكن لك أن تسافر..

تَ مَزُقٌ داخليٌّ في ذاتي يُحدِّثُهُ هذا الحوارُ الباروديُّ البارد.. فأنا لو كنتُ مقتنعاً بهذا التوجيه القانوني لجلستُ في منزلي.. ولن أَطُرُقَ باباً من أبوابِ الحُواةِ المتعجرفين .

إنَّ لواعج الأبِ نحو أبنائه تجعله ينسى كلَّ شيء في الحياة.. ثم إنَّ هذه القوانين التي يتحدثون عنها ويُطالبون أمثالي من العامة باحترامها والالتزام بها - مهما كانت الظروف ومهما كانت الأسباب - هي لعبةٌ من الخطوط السوداء على محيطٍ من الورق المرصوص بعناية ، يتجاوزها الرمزُ المسؤولُ ذاته عندما يكون المعادلُ القادمُ مَن يَحْكُمون بالقوانين أو تحكم لهم القوانين.. وحيناً فيما هو أبسطُ من ذلك..

وأحياناً فيما هو أبشعُ وأشنعُ من ذلك: علاقةٌ خاصةٌ معَ لَذَّةٍ وكأسٍ.. ورُزْمَةٍ من المال.. عندها يمكنكُ أن تُخَدِّرَ كثيراً من الرموزِ المغمورة .

إن المواطن الصالح في المجتة مع الصالح هو من يؤدي واجباته نحو كافة دوائر المسؤوليات المكلف بها.. أن يبدأ بنفسه وأسرته ليصلحها ، ثم ينتقل الإصلاح بطبيعة النفس الصالحة إلى دوائر العمل وال مرافق الإنتاجية والخدماتية، وإلى المجتة مع الكبير ، سواءً علَم المسؤولون ذلك أو لا . ثم يعلا حوا ، وسواءً كُرِّمَ المواطنُ الصالحُ في مجتة معه أو لا . ثم يُكْرَمُ..

إنَّ هذه الرؤية تكاد تكون معدومة في هذه الدوائر الممقوتة.. إنني أعلَم من أنا.. وأعلَم من ما صَنَعْتُهُ لِدائِي ولا مجتة معي ولِدِينِي وعقيدتي ، وأَعْتَرُّ حيثُ إنني أعلَم من - واللّه أعلَم من - لا . ثم تُسَجَّلُ لي هَفْوَةٌ يرصدها أولئك خلال كفاحي العلامي والعملي ، بَقَدَرٍ ما كنتُ أُؤدِّي ما عليّ من مسؤولياتٍ ليلَ نهار . وزيادةً على ذلك فقد صَمَمْتُ أَنْ أرقى مدارج المعرفة رغبةً في إسكات صراخ المتحذلقين في عصرنا المهيمن .

إذن.. فما لهؤلاء القوم لا يقدرّون ؟

أَبَعْتُ نَفْسِي وَعَقْلِي وَمَجْهُودَاتِي عَلَى حَفَنَةٍ مِنَ الْأَغْبِيَاءِ الَّذِينَ لَا يُقَدَّرُونَ
مَسْئُولِيَّاتِهِمْ ؟

نعم.. لقد استقرَّ هذا الاعتقاد في نفسي منذ أشبعتني كلاماً ومناقشةً وسَفْسَطَةً وجدلاً..

عليّ أن أتحمّل مسؤولياتي وحدي..

وأن أتخذَ قراراً أنتصرُ به لا مستواي..

لإدراكاتي..

لظروفي الملحة..



آخر مقابلة..

وركبتُ رأسي مع آخرِ مقابلة مع تلك الرموز.. اختلفتُ لهجتي عن سابقتها مع أولئك المعتلين على كراسي التَّصَرُّف المطلق.. وبدأتُ مرةً أخرى من القِمة .

قال لي رجل الدولة الأول :

- أين تريد ؟

- العربية السعودية .

- لماذا ؟

- أبي وأمي وأولادي هناك ، وربما تزوجتُ هناك ، وسأعود إن شاء الله .

- بلدك خيرٌ لك .. لا تسافر .

- أنا أعلم ؛ لكنَّ حالَ الظروف لها حكمٌ آخر .

- هات لي رسالة من إدارتك التربوية بالموافقة .

- قد لا يُعطوني رسالة كهذه !

- فماذا تريدني أن أفعلَ لك ؟

- لا شيء .. شكراً .

وانتهت المقابلة ، وخرجتُ منكسراً الإحساس والشعور ، مهزوماً العواطف والإرادة، ولم أنظر إلى أحدٍ في طريقي من دار الرئاسة حتى موقع السيارات حيث تركتُ دراجتي هناك .

إني أستحقُّ أكثر من هذا.. فربما كنتُ متفائلاً بشخصيةٍ دونَ شخصيةٍ.. فاتَّضحَ لي الآنَ هيمنةُ القوانين.. وأنَّ الذين يُسمح لهم بتجاوزها ليسوا من طينتي .

لقد دُرْتُ بين أبواب الشُّخُوص المتربعة على الكراسي طالباً أو مستفسراً أو منتظراً..
وخرجتُ بلا شيءٍ غيرِ الحسرةِ والألمِ ، وفوائدُ تعلّمِ المؤمنِ أحوالَ الإنسانِ وأهواله .
سألْتُهم : هل تريدون ضمانةً ماليةً أو بشريةً ؟

لا.. لا يريدون مني غير بقائي في بلدي.. أنا لست أكن أتصوّر أهميتي من بين
الأسرابِ المغادرةِ كلِّ يومٍ تحت سمعِ وبصرِ المسؤولين إلى هذه الدرجة ! أهُمَّ يحبونني
بجوارهم حتى إلى درجةِ حرمانِي من زيارةٍ مشروعةٍ لأهلي وأبنائي ؟! للاطمئنان على
حاضرهم ومستقبلهم ؟! وحاضرهم ومستقبلهم جزءٌ من حاضري ومستقبلي..
ومردودُ ذلك بلا شكَّ يصل إلى بلدي وأمتي من روافده المألوفة .
المسألة.. كلُّ المسألة.. عبثٌ بالعقول.. وفوضى في تقدير المسؤوليات.. وإمضاء
رؤيتي للأفراد الذين لا يُسندُهم أحدٌ في مطالبهم العادلة.. خاصةً أو عامةً .

أي إدراك لهم بحالتي وظروفي خلال حديثي معهم ؟!
إنهم في حالاتٍ عديدةٍ يتحدثون بتقريرِ مصيرِ الأفراد ومصيرِ طموحهم وأسفارهم
وإقامتهم تحت تأثيرِ نزواتِ الروتينِ الإداريِّ المطاط.. إنَّ كثيراً منهم محتاجونَ إلى من
يُشخّصُ لهم أمراضهم الذاتية.. التي تظهر في أخلاقهم ومعاملاتهم مع العامة.. إنهم
يصبونها رفضاً حاسماً.. وادّعاءً بجرمةِ اللوائح والقوانين .

أنا أرى حالي وذاتي أكبرَ من قانونٍ كهذا.. لقد حدّرتني كثيرٌ من المواطنين الذين
لست يرضعونوا الاحترامَ للقوانينِ الوضعيةِ كما رضعناها في مدارسهم.. أخبروني بأن
العقلَ الإنسانيَّ العادلَ المقيدَ بأدبٍ - كأدبِ الدين الذي عشناه ودرسناه من الكتب
الصفراء - هو القانونُ الأبديُّ الحاكم.. ووجدتُ هذا القولَ صادقاً موافقاً لعين
الحقيقة التي كنتُ أبحثها..
وكان القرار..



السباق..

انتصبتُ من الحفرة التي سقطتُ بين رمالها خلال تفكيري الآنف.. وفَرَكَتُ عَيْنِي.. وأدركتُ أَنِي الآن على بعدِ أميالٍ من تلك الدوائر بعد أن غادرْتُها إلى أجلٍ غير مسمًى.. وَحَدَّقْتُ في اتِّساع الأفق.. ولا محتُ شعاعاً يتراقصُ خلف الكتبان..

انزعجتُ من الداخل.. ورفعتُ رأسي إلى الدليل الجاثم على سطح السيارة :

- هية.. أنظرْ خَلْفَكَ.. أما تشاهدُ الضوءَ القادم إلينا ؟

وكأنه عَرَفَ ما أقصده وأشير إليه.. فحدَّق نحو الضوء القادم.. ونادى السائق :

- هناك سيارةٌ قادمةٌ خلفنا.. ما رأيك ؟

- هل هي قريبةٌ أم بعيدةٌ ؟

- لا زالت بعيدةً ؛ ولكنها ستلحق بنا .

وضَحَكَ السائقُ ساخرًا ، وقال بزُهْوٍ :

- **تَلْحَقْ !!** سألقنُهم درساً في السباق لن يَنْسَوْهُ..

ولكني كنتُ في شكٍّ من هذا التحدي المصطنع.. فسيارته ((اللاندروفر)) قديمةٌ

الميكمل والصناعة.. وها هي تُعاني عَجْزاً في مصارعة الرمال.. فكيف لو دخلتُ مرحلةَ

سباقٍ مع سياراتٍ حكوميةٍ قوية ؟

ولكن السائق فعلاً رفع درجة السرعة بحيث شعرتُ بالألم من كثرة الحركة على

أكياس السمك المجفف.. وَبَدَرَتْ لي فكرةٌ ، فربما كان الحَدْسُ صحيحاً، وتلحق بنا

سيارةُ الأمن القادمة ، سَتُسَلِّطُ أشعتها أولَ مرةٍ على ذاتي ، فأنا أَرْكَبُ في مؤخرةِ

السيارة ، إذن لابد أن أختفيَ بعض الشيء ، ونسيتُ أنها فكرةٌ غبيةٌ تُشبه غباءَ النعامةِ

عندما تَدْفِنُ رأسها في التراب دون باقي جسدها.. فتحتُ أزرار القميصِ حتى انسدلَ

على جانبي الظهر.. وتَمدَّدْتُ بين كيسينِ من أكياس السمكِ على صفةِ النائم،

ووضعتُ يديَّ تحت رأسي.. وأخذتُ في استجوابِ نَفْسي ، ونسيتُ روائح السمك الكريهة ، حيث طغى الموقفُ على كلِّ شيء .



الاطمئنان المغلف بالخوف..

جوُّ من الاطمئنان المغلفِ بالخوف والقلق غَمَرَنَا جميعاً عندما استطاعتُ سيارتُنا الابتعادَ عن السيارة القادمة.. فنحن لَمْ نعد نشاهد شعاعها الساطع.. ودارتُ بنا السيارة دورةً قصيرةً.. وظهرتُ لنا سياراتُ نقلٍ كبيرةٍ تقف على جانبي الطريق للتبريد والراحة.. فكان الجوُّ أكثر اطمئناناً في النفوس.. حيث إنها ستكون عاملاً مساعداً في التمهيد.. وجاوزنا السياراتِ الواقفةَ على أشدِّ من السرعة المعتادة إلى الكثبان الرملية الجبارة قبل أن يلحق بنا أحد .

وبينما سيارتُنا تُصارِعُ الكثبانَ الرمليةَ العاتيةَ سَطَعَ خَلْفَنَا ضوءٌ قويٌّ ومفاجئٌ لَمْ نكن نتوقعه.. وارْتَسَمَتِ الأشعةُ القادمةُ على هيكل سيارتنا.. فذَبَّ الخوفُ في الركاب.. وانزعج السائقُ انزعاجاً ظاهراً.. وأوقفَ السيارةَ وقفاً اضطرارياً مفاجئاً بعد أن أطفأ الأنوار.. وقَفَزْنَا بإشارةٍ خاصةٍ إلى الشجيراتِ المنتشرةِ في كلِّ مكان..

لقد كان الموقفُ يُنذر بالخطر.. والرَّيقُ يكادُ أَنْ يَقِفَ في حَلْقِي.. ولَمْ تَكَدْ الثَّواني القليلةُ تَمْضي حتى كنتُ قد اختفيتُ خَلْفَ تَلٍّ كبيرٍ من الرمال .

شاهدتُ مِنْ على التلِّ سائقَ سيارتنا وصاحبه يفتحانِ غِطاءَ المحرِّك للسيارة وكأنهما تعطلت.. واقتربتُ منهم السيارةُ القادمة.. ولكنِ اتَّضَحَ لنا سوءُ التقدير.. فالسيارةُ القادمة لَمْ تكن سوى واحدةٍ من سيارات النقل التي تجاوزناها.. وأُشيرَ إلينا بالعودة إلى السيارة من جديد.. وقد علَّ منا الدليلُ أَنْ لَا نبتعدَ كثيراً عن مكان السيارة عندما تقع المفاجآت .



السائق.. المغامر المحترف..

النجوم تَنَالُهَا الليلة.. أهَيَ فَرَحًا بِرحيلي مِن هذه المدينة ؟ أم هو استعدادٌ بهيجٌ لروحٍ جديدةٍ ستنقلُ إلى العالَمِ الآخرِ الليلةَ ؟ كلُّ شيءٍ جائزٌ في حالةٍ كهذه.. إنها حالةٌ لا تَرْتَكِزُ على قاعدةٍ ولا قياس.. يلعبُ الحظُّ دوراً كبيراً في النجاح والفشل.. لقد ارتَطمَ رأسي أكثرَ مِن مَرَّةٍ بالعارضِ الحديديِّ الذي أُسْتَنِدُ إليه ، كلُّ ما هبطتُ بالسيارة حُفْرَةً أو ارتفعَ بها حجرٌ أو تجاوزتُ كثيبَ رملٍ رَطَبٍ.. والسائق كان يلومنا على التَّسَرُّعِ في الظَّنِّ السيِّءِ.. فقد أَضَعْنَا بعضَ الوقتِ فيما لا طائلَ تحته.. ثم أخذ يُسَبِّلُ علينا من لسانٍ متدربةٍ عباراتِ الاطمئنان والتفاؤل :

- السياراتُ تنتشرُ هنا دائماً..

- إنها طريقٌ معتادةٌ..

- لا تجعلوا القَلَقَ يُسيطرُ عليكم..

- لقد دَمَرْتُم أعصابي..

- إنَّ حياتكم مرتبطةٌ بحياتنا ، ونحن حريصون على نجاحِ الرحلةِ أكثرَ منكم..

لقد قال السائق قولاً حقاً.. إنهم حريصون على نجاحِ الرحلةِ أكثرَ منا.. فبنجاحهم

في هذه الرحلة ستكرَّرُ الرَّحلات.. وستَسْعُ « دائرةُ العطاء المادي » ..

وقطع الحديثَ المعسولَ مطرٌ من الأسئلةِ القلقةِ وجَّهَهَا الشابانِ الرَّاكبانِ بجواره :

- منذُ متى وأنتَ تَمْتَهِنُ التهريبَ ؟

وكأنه امْتَعْضَ وقال :

- أنا لا أهرَّبُ.. لكنني نَقَدْتُ أوامرَ ذلك الرجل الذي جاء بكم.. إنه أبٌ

لي.. وعزيزٌ عليّ.. ربَّاني منذُ كنتُ صغيراً .

- هل سبقَ وأنْ وَقَعْتُم في أيدي رجال الأمن ؟

- لا.. نحن نتدبر أمورنا معهم .

- متى كانت آخرُ رحلةٍ لك ؟

- قبل يومين.. وقد خرجتُ من عدن في وقت الظهر.. لا تقلقوا ولا داعي للخوف ، فالسلطاتُ مشغولةٌ بنفسها، ولا أحدٌ يسألُ أحداً ، ولا يسألون عن أحد .

تَنَاقَضُ صريحٌ في حوار القائد المغامر ؛ ولكنَّ الحياةَ لا تَلْدُ لِمَرِيٍّ إِلَّا بِتَنَاقُضَاتِهَا.. إِنَّهُ حِوَارٌ جافٌ وعابرٌ ، لا يَسْتَنِدُ على قاعدةٍ أخلاقيةٍ ولا على أُسُسٍ موضوعيةٍ ، ولا تربط بين الأطراف أيُّ روابطٍ ذاتٍ معنىٍ اعتباريٍّ.. الرابط الأساسي في المسألة كُلِّها هو المصلحة ، وال مصلحةُ المادية فقط ، ولذلك فأنا صامتٌ وهم يتكلمون.. أنا في صمتي أحاكمُ ذاتي ، وأستعرض أقوال السائق المتناقضة .

يقول : « أنا لا أهرَّب » ، ثم يقول : « نحن نتدبر أمورنا مع رجال الأمن » ، وأخيراً « خرج من عدن قبل يومين وفي حر الظهر » !! أما هذه أحاديثُ مغامرٍ مُحْتَرَفٍ؟

إنَّهُ أمرٌ يجلب الاطمئنان إلى حدٍّ ما.. فالرجلُ خبيرٌ بمهنته حتى لو كاد يُخْفِيها.. وفُرْصُ النجاحِ ضِمْنًا تبدو أكثرَ ترجيحاً في ذهني الآن.. وشعاعُ السيارة القادمة لا يحلّ عيني من جديد.. وإذا بي أنزلق إلى وادٍ جديدٍ من القلق المفاجئ.. أليست هذه ظروفُ المغامرات !!

لو صدَّقَ الحَدْسُ مرةً أخرى عن هُويَّةِ المطاردةِ مِن مِنَّا سينال النصيب الأوفر من العذاب والتنكيل؟؟ نحن أم السائق وصاحبه؟؟ نحن لا لَوَمَ علينا.. وأنا شخصياً أمتلكُ شروط الاقتناع.. لاشك أنهم يُقدِّرون المواقف.. لربَّما أعذروني إذا عرفوا قضيتي من كلِّ نواحيها .

لا.. لقد تذكرتُ أنهم لا يسمحون لِمَتَّهِمٍ أَنْ يتحدَّثَ حتى النهاية إلا بعد أن يذوقَ مرارةَ العذاب.. إنهم لا يفكِّرون في مصلحة أحد.. مصلحةُهم فوق كلِّ مصلحة.. إذن فنحن في حكمهم إذا قُبِضَ علينا : « قد ساهمنا في التخريب مع سَبْقِ

الْعَمْدِ وَالتَّرَصُّدِ وَالْإِصْرَارِ) .. ((رَضِينَا أَنْ نُغَادِرَ الْحُدُودَ مَعَ عَصَابَةِ خَارِجَةِ أَفْعَالِهَا عَنْ الْقَانُونِ)) ، إِنَّ بَنُودَ الْقَوَانِينِ تُنْصُ عَلَى عَقُوبَةٍ كَبِيرَةٍ تُتَّخَذُ ضِدَّ مَتَّهِمٍ بِهَذِهِ الْاِتِّهَامَاتِ .
على كل حال .. نحن الآن قد رَكِبْنَا وَأَسْلَدْنَا أَنْفُسَنَا لِلَّهِ .. { هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } .. اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا الْإِطْمِئْنَانَ وَالرِّضَا بِقَضَائِكَ وَقَدْرِكَ .

نعم .. لقد تذكرتُ في موقعي هذا آيةً من كتاب الله الكريم كان أبي يكرِّرها عند الخطر .. { وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } ، وَأَخَذْتُ أُكْرِّرُهَا دُونَ انْقِطَاعٍ .. حَتَّى غَرِقَتْ عَجَلَاتُ السَّيَارَةِ فِي الرَّمْلِ .. وَلَحِقَتْ بِنَا السَّيَارَةُ الْأُخْرَى حَتَّى لَمْ يَعُدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا سِوَى خُطُواتٍ مَعْدُودَةٍ .

تُرى لِمَ مِنْ هَذِهِ السَّيَارَةِ الْاَلْحَقَّةُ ؟ أَغْلَبَ الظَّنَّ الْمَرْجَحَ أَنَّهَا لِرَجَالِ الْأَمْنِ .. وَإِلَّا لِمَ حَازَتْ هِيَ مِنْذُ اللَّحْظَاتِ الْأُولَى الَّتِي غَادَرْنَا فِيهَا أَضْوَاءَ الْمَدِينَةِ وَدَلَفْنَا إِلَى الْكُثْبَانِ ظَهَرَتْ أَنْوَارُهَا خَلْفَنَا ؟ أَيْنَ كَانَتْ مِنْ قَبْلِ ؟ إِنَّا سَنَقْدُمُ بَعْدَ قَلِيلٍ عَلَى أَمْرٍ مُجْهُولٍ .
سَيَارَتُنَا كَانَتْ تُعَالِجُ الرَّمَالَ .. وَكَانَ مُسَاعِدُ السَّائِقِ يُزِيحُ بِكُلْتَا يَدَيْهِ الْأَتْرَبَةَ الْعَائِقَةَ لِحَرَكَةِ الْعَجَلَاتِ .. ثُمَّ يَدْفَعُ السَّيَارَةَ مُسَاعِدًا صَاحِبَهُ لِلْإِفْلَاتِ مِنْ أَسْرِ الْعَدُوِّينَ ..
الْوَهْمِ وَالْحَقِيقَةِ ..

أَمَّا الْوَهْمُ فَهُوَ شِعَاعُ السَّيَارَةِ الْقَادِمَةِ الْمَجْهُولَةِ .. وَأَمَّا الْحَقِيقَةُ فَهُوَ الرَّمْلُ الرُّطْبُ الَّذِي وَقَعْنَا فِيهِ أَسْرَى .. كَانَتْ السَّيَارَةُ الْأُخْرَى تَرْسُمُ طَرِيقَهَا عَلَى خُطُوطِ آثَارِنَا فِي الرَّمَالِ مُحَاوِلَةً اخْتِصَارَ الْمَسَافَةِ لِلْحَاقِ .. إِلَّا أَنَّ الرَّمَالَ الْأَرْضِيَّةَ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ مَطَارِدٍ وَمَطَارِدٍ .. حَيْثُ كَانَتْ الْجَازِبِيَّةُ الرَّمْلِيَّةُ تَسَاعِدُ أحياناً فِي تَخَلُّفِ السَّيَارَةِ الْأُخْرَى عَنَّا بِمَسَافَةٍ تَسْمَحُ لَنَا بِالِابْتِعَادِ .. وَلَعَنَاتُ السَّائِقِ لِحَظِّهِ وَلِلطَّرِيقِ وَلِلْسَّيَارَةِ تَتَلَحَّحُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ .. بَلْ كَانَ يَدُقُّ بِكُلْتَا يَدَيْهِ عَلَى مِقْوَدِ السَّيَارَةِ مِنْفَعلاً إِذَا اسْتَنْفَدَتْ الرَّمَالُ كُلَّ قُوَّةٍ مِنْ سَيَارَتِهِ وَأَسْرَتْ حَرَكَتَهَا .

وقابلتنا تلالٌ صغيرةٌ وأكواخٌ متناثرةٌ وسياراتٌ متعددةٌ تتجمع في موقعٍ رمليٍّ فسيحٍ، ودارت سيارتُنا بين تلك الأكواخ حتى صرنا متجاوزين التجمعات ، واستأمن السائق وصاحبه الموقع عن خطر الفضوليين ، فأشار علينا باقتفاء أثره ، فسرنا خلفه غيرَ بعيدٍ ثم جلسنا على أرضٍ رمليةٍ جرداءٍ بعيدةٍ عن الناس ، ورأينا السيارة الأخرى التي كانت تلاحقنا منذ زمن بعيد قد اتخذت لها موقعاً نائياً عنا ، مما زادنا اطمئناناً في نجاح الرحلة.. وتَنَفَّسْنَا الصُّعْدَاءَ .



من «الوزف» .. إلى الدخان..

غيرَ قائدُ الرحلةِ موقعي من السيارة ، وطلب مِنِّي أَنْ أُرْكَبَ في المقعد الأمامي ، وتلقيتُ الأمرَ بالارتياح ، فلعله قد عَرَفَ موقفِي الصعب من هذا الوضع المرهق ، وركبتُ بجوار السائق في السيارة الأخرى ، وركب بجانبِي إلى الباب شابٌ آخرُ أقربُ الظَّنِّ عندي أنه قريبٌ أو دليلٌ للسائق ، وبمجرد أن رأني الشابُّ أخذ يسألني عن ذاتي.. وأين أقصد؟ وماذا أريد؟ فشعرتُ بالانقباض حيث إني نسيتُ أسلوبَ التَّجَسُّسِ هذا منذ أن غادرت المدينة.. لِمَ ماذا الأسئلة؟ واضْطُرْتُ أَنْ أُجِيبَ فِي حَذَرٍ وَحِيْطَةٍ ، وَلَكَزَنِي السَّائِقُ لَكَرْةً خَفِيفَةً عَرَفْتُ مِنْهَا مَا يَرِيدُ.. فَلَمْ أَزِدْ بَعْدَهَا عَنْ الصَّمْتِ الْمَطْبِقِ.

وسادَ جَوَّ السيارةِ مَوْجَةٌ مِنَ الصَّمْتِ الرَّهِيْبِ وَالْقَلْقِ الْمَزْعَجِ.. بَدَّدَهُ السَّائِقُ بِإِخْرَاجِ سِجَارَتِهِ وَسَدِّهَا لِي لِأَشْعَلَ لَهُ سِجَارَةً..

اعتقدتُ بادئ الأمر أنه يريدني أَنْ أُدَخِّنَ.. ولكنه أشار إِلَيَّ بِإِشْعَالِهَا.. وفي هذه اللحظة انسحبَ الشابُّ الآخَرُ مِنْ مَكَانِهِ لِيصْعَدَ إِلَى أَعْلَى السَّيَّارَةِ جِوَارَ زَمِيلٍ آخَرَ..

فالتفتُ خلفي لأرى أن السيارة تحملُ عدداً من الأبقار والعجول مثبتةً بالحبال إلى جانب السيارة الصغيرة .

لقد عددتُ رُكَّابَ السيارة - من غيرِ البقر طبعاً - فكُنَّا أربعة.. ولكننا لـ سم ننسجم فيما بيننا على الإطلاق.. بل انتشرت فيما بيننا رائحةُ شكٍّ مُدمِّرٍ مخيفٍ.. فقابلها الجميع بالصمت المطبق..

وبدأت الخواطر.. لـ ماذا لكزني السائق عندما أتحدثُ مع الشاب؟ أهو يشكُّ في أمر صاحبه؟ أم هو يخشى عليه مني؟ شيء غريب! فالناس يختلفون في مقاصدهم وآمالهم رغم وجودهم على كَفِّ قَدَرٍ واحدة .

ورأيتُ المجال قد صار أكثرَ سَعَةً في غرفة قيادة السيارة.. فالرجل الشاب الذي كان قد صعدَ إلى الأعلى.. وصرتُ أكثرَ راحةً وطمأنينةً ، فوضعتُ ساعدي على نافذة السيارة وأطللتُ على الخارج قليلاً.. فانتعشتُ روحي انتعاشاً عندما لفحتُ وجهي هبَّةً نسيمٍ باردٍ ، ومسحتُ عن قلبي آثاراً كثيفةً من الدمار والقلق .

وفوجئتُ بأنني أحملُ في يدي سيجارةً!! إنها سيجارةٌ طلبها سائق السيارة فظلتُ في يدي.. سل حمتُها له وأمرني أن أشعل أخرى لي.. فاستجبتُ وأشعلتها رغبةً مني في إغلاق باب الكلام.. ووضعتها في يدي اليسرى حيث كنتُ متكئاً عليها من نافذة السيارة.. ثم استجبتُ لتراسلِ حواسِّي .



دع الأقدار تفعل ما تشاء وطب نفساً إذا حكم القضاء

النجوم تُرَصَّعُ أَدِيمَ السماءِ فيبدو زاهياً كلُّ الزُّهُوِّ.. والظلامُ المستبِدُّ على الأرجاء يُضفي على لَمَعَانِهَا قُوَّةً وعنقواناً فينتشر ضوءٌ خافتٌ وانعكاسٌ لطيفٌ على صفحة الرمال الواسعة.. فيقرأ المَبْصُرُ منها سطورَ الأمل الممتزج بالخيِّرة.. وَيَدُلُّفُ منها إلى أبعادِ المسافات النَّفْسِيَّةِ الإنسانية المتناقضة.. إنه تناقضٌ يُشبه تناقضَ الموجودات على هذه الرُّقعة الرملية الفسيحة.. الإبصارُ يَصِلُ في مَداهِ إلى حيثُ تَبْلُغُ أضواءُ السيارة الكاشفة.. ثم يَرْتَدُّ حسيراً غائراً لِيُغْوِصَ إلى أعماقِ الذات.. فتنبهر العينُ القَلْبِيَّةُ برؤيةِ عالٍ مِ داخلِيٍّ زاخِرٍ بكلِّ متنافرٍ متباينٍ على هيكلٍ جسديٍّ.. جسدٍ بشريٍّ أحاطه العقلُ بسياجٍ من الفكر والحذر والشكِّ والخوف.. والاستنفار الدائمُ لِقُوَّاتِ الدَّفْعِ والجَلْبِ.. وَرُوحٌ ذاتُ سُلْطَةٍ مطلقةٍ تجوبُ سَجناً مُسَيِّراً مختاراً.

لقد كان إصراري على البقاء هناك في أرجاء المدينة رغبةً يَنْبِضُ بها عالٍ مِ الجسدِ لا عالٍ مِ الروح.. أما الروحُ فمدينتها التحليقُ والانطلاق في الأوسع والأشمل.. والجسدُ يَهْوَى الظروفَ وأحكامها.. وَيُساهِمُ في إَحْكامِها.

وأما هنا - حيثُ الليلةُ أنا أَقِفُ - فقد امتزج العالِ حانِ: الروحُ والجسدُ.. واعتنقا في مستوى واحد.. واحتشدا على أَكْمَةِ القلبِ النابضِ بالخوفِ والرجاء.. {لِيَقْضِيَ} اللهُ أَمْرًا كان مَفْعُولًا.. لَمْ أَشاهد طولَ رحلتي هذه أثرَ الحيوان.. لَقَدْ اعتَدْنَا في أسفارنا أن نلتقيَ ببعض الحيوانات البرية: الثعلب والأرنب والفأر والثعابين و«سام أبرص».. وفي أقلِّ الحالات نرى حشرات البيئة تلتفُّ حول الشعاع أو تلقي بنفسها إليه.. ليس في رحلتنا هذه شيءٌ من ذلك.. يا تُرى: طريقنا التي نسلُكها تَنْعَدِمُ فيها الحياة والحركة لكونها طريقَ مجازفةٍ وانتحارٍ؟ أم أن الكائناتِ الحيةَ هنا تنجُلُ من الإطلال على جماعةٍ ارتكبوا مخالفةً ضد القوانين الوضعية؟

لست أدري.. إن اعتقادي الجازم منذ أن أدركتُ أمر القانون والتواءاته: « أن كلَّ قانونٍ وضعي لا يُقيّد إلا مَنْ كَبَلَ نفسه بواضعيه سلباً أو إيجاباً » .. حيث إنه مرسومٌ يُقدّر مصلحةً ويدافع عن مثلها.. أما القانون الشرعيُّ اللازم.. هو قانونُ التشريع السماوي الحاكم.. وهو القانون السليم التي تكون مخالفته مجازفةً وانتحاراً.. قانون ينظم سلوك الفرد في الجماعة.. وسلوك الجماعة في الأمة.. وسلوك الأمة في الأجيال.. قانون متكامل يربط بين أعضاء الأديان في كل زمان ومكان.. الخارجون عنه هم الجديرون بالمحاسبة والمحاكمة والتطويق.. وما أكثر الخارجين.. وما أبشع تعييلاتهم عند الحديث عن قصة الخروج عن القانون السماوي .



قرية السائق..

هاهي ذي سيارتنا قد خَفَضَتْ من سرعتها.. وأرى أمامي مسافةً مغريةً من الرمال المتساوية تخترقها طريقٌ تكاد أن تَحَيَّ آثارها.. وسائق السيارة يسارق النظر إلى السيارة الأخرى.. وهي تكاد أن تتوقف عن المسير بعد أن خرجت أمامنا عن الطريق الرئيس إلى صفحة الرمل المتهوِّج .

وقفت السيارة الأخرى قريباً من تلك.. وأمرنا بالترول حيث إننا تعودنا الأوامر في هذه المرحلة كجزءٍ من قانونها الوضعي المؤقت.. واختير لنا مكانٌ ملائمٌ نتبادل فيه الحديث الهامس عن المسافة المتبقية.. وكان حديثاً هاماً وحاسماً .

يتحدث القائد باطمئنان أكثر.. وتفاؤل أكبر.. عن نجاح الرحلة وتجاوز الكثير من مراحلها المقلقة ، وأننا صرنا في حالٍ قريبٍ من برِّ الأمان .

أَمَرَ قَائِدُ الرحلة بعودتي من السيارة التي كنتُ بها إلى موقعي الأول في سيارة السمك المجفف ، فالرحلة - كما يقول - سَتُسْتَأْنَفُ واحة حالاتُ الخطر تُكَادُ تنعدم، ونحن قادمون على قرية « القائد » موضع سَكْنِهِ ، وهذا يعني أننا سَنَحُلُّ ضيوفاً عليه.

وبين لحظةٍ وأخرى والسيارة تنخفض وترتفع في الكثبان الصغيرة المبسوطة على تلك الوهاد ، بَدَتْ لَنَا قريةٌ صغيرة أضواؤها الخافتة موزعةً هنا وهناك، ترتفع منها أصواتُ الكلاب . ولستُ أدري لِمَاذَا أتشاءمُ من أصواتها في رحلتي ؟ فلقد كانت هذه الأصوات أَوَّلَ ما طرق سمعي في الساعة الأولى من الخروج عن الدائرة الحمراء ، وهاهي الآن حجةٌ معةً مرةً أخرى .

إنني أخشى أصواتها المتلاحقة.. فلربما أيقظوا الرِّصَدَ بُباحهم ؟! ربما أشعروا غيرنا بوجودنا ؟! أتُحْنِي لو سَكَتَتْ كِلَابُ القرية ؛ ولكن الكلاب لن تُكْفَ عن التُّباح حيثُ ما كانت ، ولها شرعيةٌ نحن نجهلها ولا نَسْتُ حُرَّتُها في مقامٍ كهذا ونحبُّها في غيره.. إذن لِمَاذَا تنبَحُ كِلَابُ القرية ؟

لقد أوقَفَتْنا السيارةُ على مسافةٍ بعيدةٍ من العُمران ، حتى لا نكون هدفاً للفضوليين من أهل القرية ، واختيرَ لنا مكانٌ ملائمٌ للترول ، وأُمرنا أَنْ نُنْزِلَ واحداً بعد الآخر ، وَأَنْ نَتَّجِهَ إلى أَكْمَةِ كبيرةٍ لنختفيَ فيها فترةً من الوقت ريثما يطمئن القوم عن حال المكان ومن فيه .

عاوَدَ الاطمئنانُ قلوبنا مرةً أخرى ، وأُمرنا بالتجمع على فراشٍ من الحَصِيرِ فَرَشَهُ لَنَا قَائِدُ الرحلة البدويّ ، واسترخى بعضُنا على أطرافه من أَلْسَمِ الرحلة وعنائها ، وتحسَّستُ بيديّ تربةَ الموقع فصادفتنا نَدِيَّةً رَطْبَةً ، فأسلدتُ نفسي إليها راضياً مَرْضِيّاً.. كان الرجل كريماً في قريته.. تتجسد على صورته وحركته أنْفَةُ البدويّ وعِزَّتُهُ وانتصارُهُ.. وتلك صفة البدويّ في كل مكان.. جاء لنا بالشاي والخبز

وال ماء.. وأكلنا ما استطعنا أن نأكل.. ثم رأيناه قد قَدِمَ إلينا وجلس مرتخياً في وسط الجماعة يحدثهم عن رأيه الجديد ومشروعه النهائي المفيد .
- سننام حتى الفجر .

- **ننام ؟!** وهل غادرنا بلادنا مخاطرين بأرواحنا لننام ؟!

- لا.. لا.. سنواصل الرحلة قبل أن يَقْطَنَ إلينا أحد .

ابتسم الرجل ابتسامةً أظهرت صفّاً من الأسنان الصفراء وقال :

- أولاً اطمئنوا.. أنتم الآن قُربَ الحدود.. لم يتبقَّ سوى مسافةٍ قصيرة.. ومن الأنسب لنا أن لا نسير المسافة المتبقية في مثل هذا الوقت من الليل حيث تنشط الدَّوريات.. سننام حتى الفجر.. خذوا مَرَاقِدْكم ولا تخشوا شيئاً .

ترتاح النَّفْسُ أحياناً حتى لا مجرَّد الكَذِبِ عليها من لسانٍ متفائلٍ.. وهانحن قد سَرَت في أرواحنا رَعَشَةَ الحياة من جديد.. ونسينا الخوف.. وارتخت مفاصلُ الأجساد لَنَعْمَ بنومٍ هادئ.. وتذكرتُ أنني لا سم أصل المغرب ولا العشاء.. وبدَرَ ذهني أن إهمالهما ربما كان سبباً في عودتي إلى حيث كنتُ البارحة.. ففُتُّ أَتَحَسَّسُ موقعَ الماء المطروح في جانبٍ منا وتوضَّأتُ.. وكان الجوُّ يميل إلى البرودة.. ووقفتُ بعد ذلك أصلي صلاةَ مرتابٍ يسبحُ في بحرٍ من الشكِّ والقلق.. اضْطُرَرْتُ خلالها أن أُكْمِلَ الصلاةَ جالساً .

لقد كنتُ أشعرُ أنني كلَّ ما وقفتُ في صلاتي أن هناك مَنْ يرى قميصِي الأبيض الناصع فيستغربُ وجودي في هذا الفراغ.. وأتذكَّرُ أن أحدَ الرُّكَّاب قال لي في أول الرحلة : هذه ليست ثيابَ مُتَجَاوِزٍ للحدود.. إنها ثيابٌ نظيفةٌ ، وهي صِفَةُ سُكَّانِ المدن.

وأكملتُ الصلاة.. وأخذتُ مَرَقَدِي بعد أن وضعتُ رأسي على حقيقتي الصغيرة.. وأخذتُ أَجُولُ ببصري في صفحة السماء المزينة بالكواكب والنجوم.. وأتأمل هذا الوجود العجيب والإنسان الأعجب.. وطموح الأفراد والجماعات وآلامهم وآمالهم

وصراعهم للحياة والأحياء.. الحقد.. الحسد والكراهية.. دوافع الرحلة.. و وَقَعُ ذلك على المجتة مع القريب إليّ ومني وحوالي أهلي وأصحابي.. لا شك أنهم سيفتقدوني.. لن يجدوا بديلاً عني خصوصاً في تلك المادة التي هي سلوكي وحدي في الفراغ الكبير.. رغم وجود الكوادر الكدرة في دوائر التربية والتعليم هناك إلا أنها في مادتي شحيحة ونادرة.. بل وتكاد تكون معدومة.

وهناك في قريتي الوديعة سيتحدثون عن مغامراتي.. عن ظروف الملحة.. لاشك أن الكثير سيعذرونني.. سيعتبرون عملي هذا مسألة إنسانية شريفة تقتضيها ظروف حياتي.

لقد اشتهر كثير من أصحابي وأصحاب أبي عندما أخبرتهم أنني لا أنوي مغادرة البلاد مهما كانت الظروف.. سخرُوا مِنِّي وأعرضوا عني.. اعتبروني رجلاً غيباً لا يفكر في سعادة أهله وأولاده بقدر ما يفكر في ذاته فقط.

شيء مضحك!!!

أي سعادة كنت أفكر فيها لذاتي؟!

أكنت سعيداً عندما أقف في متري أكنس الأوساخ والأتربة حتى أشعر بقصم ظهري؟!

أم هي سعادتي في مطبخي الصغير بين هدير الأرز الفائز ورائحة السمك المقلي؟!

أم ثراها في غسل صُحُونِ الأكل وفناجين القهوة وغسل الملابس ونشرها؟!

أم هي في وُحْدَتِي الضاربة على إحساسي ووجودي سياجاً من الألم والعذاب؟!

الناس في تفكيرهم لا يتورعون ولا يتوَحَّونَ حقائق الأمور.. يحكمون بسطحية كما يبدو لهم.. شأنهم في ذلك شأن الجهات المسؤولة عن السفر بفارق يمثله الارتباط بين القمة والقاعدة تحت سقف البديهيّات البشرية.. لا يُهمُّهم مصلحة أحدٍ بال معنى

الدقيق.. ولا يُهمُّهم استقرارُ الأفراد ولا الجماعات.. ولا يؤمنون بأنَّ استقرارَ الفرد هو استقرارُ الجماعة.. هو كثرة العطاء.. هو كثرة الإنتاج.. هو الإبداع بعينه..
إنَّ رُمُوزَ القِمَّةِ يُوزَّعونَ على رعاياهمُ القَلَقَ كما هم يعيشون فيه.. يحسدون الناس أن يَتَمتَّعوا بأمنٍ كافٍ واستقرارٍ كافٍ في الحياة.. يحقدون.. لأنهم ينطلقون من مبدأ الحقد الطَّبَقِيِّ.. وحقدهم ليس طبقياً فقط.. ولكنه « حَقْدٌ طَبِيعِيٌّ » .
لقد كَلَّفَنِي أولئك بما لا أُطيق.. مجاملةً ومراوغةً ومزايدةً.. لولا أنني كنتُ أحرص على أجيالٍ بلادي لكنتُ قد غادرتُ أرضي دون سبب من قَبْلِ هذا اليوم.. أما وَقَدِ اجْتَمَعَ الأَلسُنُ والسببُ فإنها هجرةٌ من أرضٍ ظالِمٍ أهلها ولا شَكَّ.. قال تعالى:
{ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا } .



الشاب الحصيف..

مزيجٌ من النومِ واليقظة.. ومنَ الاطمئنانِ والحذر.. حتى أَسْفَرَ الفجرَ وبَدَتْ خُيُوطُهُ تغشى الموجودات.. وأُعلِنَتِ الرحلةُ من جديد.. وخَلَفَ السيارةَ المألوفةَ وَقَفَ السائقُ والدليلَ وشابٌ جديدٌ لَمْ نَرَهُ من قَبْل.. حَدَّدَ القائدُ لنا مَهَمَّةَ الشابِّ الجديد.. وأَمَرَنَا أن نُطبِّقَ تعليماته بدقة.. وسَرَدَ لنا التفاصيلَ بذكاء واختصار.. أُعْجِبْتُ بالشابِّ النبیه منذ أوَّل لحظة.. كان في العِشرينَ تقريباً.. يمتازُ بِمِيزَاتٍ جَيِّدَةٍ.. دقيق الملامح.. فارِعَ الطُّول.. يبدو الذكاءُ المفطور في عينيه الضيقتين أكبرَ من عُمرِهِ وأَوْسَعَ من قُدْرَاتِهِ.. يتحدَّثُ قليلاً ويتلفَّظُ كثيراً.. يَهْمِسُ في مَقَامِ الاطمئنان.. وَيَصْمُتُ في مَقَامِ الخطر.. إشارتهُ تَسْبِقُ كلامه .

انطلقنا في موكبنا الأخير من تلك القرية النائمة على رمال الصحراء.. وخُيوط
الفجر ترسّم في الأفق ذيل السّرحان.. وكنا أكثر قلقاً وأشدّ حذراً.. ولعله كان
الأسلوب الحواريّ الجديد الذي أدخله الشابّ الدليل إلى نفوسنا.. رأيته يركبُ
مُسْتَوْفِراً على أحد أكياس السمك المجفف.. ويقبض على إحدى العوارض الحديدية
بكلتا يديه.. قدماه مُنتصبتان.. يتلَقَّت في سرعة واهتة مام.. يقرأ ما حوله من
الموجودات وال معالِم بسرعة فائقة.. ويُعطي تعليماته للسائق بدقّة وثقة فائقة..
لقد ركبنا هذه المرة جميعاً على أكياس السمك المجفف.. ولَم يركب أحدٌ منا في
مقدّمة السيارة.. فالخُطّة الجديدة تقتضي ذلك .

لقد بدأ بعض الرفاق يشمئزون من وضعهم الصعب على هذه الأكياس..
ويتذكرون الراحة التي اكتَنَفَتْهم خلال الرحلة الطويلة من أبواب المدينة الماخرة في
السُّبُات.. بينما كنتُ أنا أفكّر في شيء آخر.. وهو البرزخ الأخير من رحلة لنا هذه.
والتَقَت الشابُّ نحوي وأشار إلى أن أتجرّد من هذه الملابس.. ووجّه حديثه الهامسَ
إلى قائد السيارة يأمره أن يخفض سرعة السيارة قليلاً قليلاً.. ولَمّا كُنّا نمرُّ بجوار
أكمة صغيرة قفز الشاب إلى الأرض قفزة خفيفة وأشار إلينا باللاحاق مُسرّعين..
واختفينَا خَلْفَ الشُّجيرات الصغيرة .

أنا لا أدري أين نحن الآن ؟ ولَمّا ماذا نختبئ في هذه اللحظة ؟ ونظرتُ إلى نفسي
فلَم أرَ شيئاً على جسدي غير الإزار وقد لبسْتُها بصورة تسمح لي بالجري عند
الحاجة.. ووضعتُ كلَّ أشياءي في الحقية.. في يديّ نعلايّ وحقيقتي.. وقلبي..
ولَم محتُ الشابُّ وقد انطلق كأنما هو جانٌّ أو تُعبان.. ونحن نراوغ في الطريق خلفه
بين التّعثر والاستقامة.. نراه يجري حتى لا نكاد أن نراه.. ثم يختبئ ويتنصّت
الأصوات وحفيف الأشجار.. ثم يُشير إلينا باللاحاق.. وكنا نلهث خلفه لهثاً
غريباً.. ونقطعُ وادياً امتدّت فيه شجيراتٌ متنوعةٌ تسمح بالاختفاء والتّموهيه..

وشاهدنا السيارة قد صَعَدَتْ تَلاً كبيراً بدا لنا من ضوء السيارة الكاشف أن عليه حصناً عسكرياً صغيراً.. وقفتِ السيارةُ بجوار الحصن.. بينما أَمَرْنَا الدليلُ بأن نُضَاعِفَ الهرولةَ في هذه اللحظة بالذات.. حتى كاد قلبي أن ينفجرَ من كثرة الهرولة.. وانحدرتِ السيارةُ من جديد نحو الوادي فأضاءتْ كُلَّ شَيْءٍ.. صرنا أمامها.. فأشار الدليلُ علينا بالاختفاء حتى لا تُكشِفَنَا الأضواء.. وما أنْ حَاذَتْ السيارةُ الواديَ حتى أخذنا نسيرُ خلف الدليلِ بِخَفَّةٍ وَحَذَرٍ حتى صارت السيارةُ محاذيةً لنا.. ولم نَقِفْ وإنما خَفَّفَ سائِقُهَا السرعةَ ريثَ ما نرَكِبُ وَنَتَّخِذُ مَوَاقِعَنَا الجديدةَ على مَتْنِهَا.. وتَمَّ ذلك في سرعةٍ مذهلةٍ للجميع.. وانطلقتِ السيارةُ من جديد .



المرحلة الأخيرة..

لَمْ يَعدْ في فمي ريقٌ ولا رطوبة.. أَقْلَبْتُ لِسَاناً يَتَلَمَّحُ في تجويفِ لِحْيِي.. لا أجدُ غيرَ خُشونةِ التعبِ واللَّهثِ.. قَدَمْتُ إِلَى الدليلِ قَليلاً من الماء.. فشعرتُ أَنَّهُ بَلَسَ الحياةَ الشافي.. وَقَبَعْتُ أَنُصِتُ إلى حديثِ هامٍّ يَدُورُ بين الدليلِ والسائق .

- لقد بَلَّغْنَا المرحلةَ الأخيرة.. سَأَقِفُ بكم على قَمِ الوادي.. هذا الشابُ سيسيير بكم مسافةً قليلةً.. اِهْتَمُوا بتعليماتِهِ جيداً.. هذا الوادي هو الحدُّ الفاصل.. وهو أخطرُ المواقعِ التي تعترضكم.. لا تُحَدِّثُوا صوتاً ولا كلاماً.. أُخَلِّدُوا إلى الأرضِ بمجردَ سماعكم ما يَرِيب.. وانتظروا حتى تَتَلَقَّوا إشارةَ الدليلِ .

- صمتاً.. يكفي كلاماً..

هكذا قال الشابُ الحصيف..

- لا مجالَ للحديث الآن.. انتبهوا للطريق .

وَمَرَّتْ لَحَظَاتُ عَصِيْبَةٍ كَانَتْ حَدَقَاتُنَا فِيهَا تَتَسَّعُ وَتَتَسَّعُ حَتَّى تَكَادَ أَنْ
تَسْتَوْعِبَ كُلَّ شَيْءٍ يَغْمُرُهُ الظَّلامُ.. نحن لا نعلم ماذا يُخْبِتُهُ لَنَا الْقَدَرُ خَلْفَ هَذِهِ
الشَّجِيرَاتِ ؟؟ كُنْتُ أَتَى مَنْى لَوْ وَهَبَ الْإِنْسَانُ قُوَّةً خَارِقَةً كَزَرْقَاءِ الْيَمَامَةِ مِثْلًا حَتَّى لَوْ
كَانَتْ خِرَافَةُ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ.. إِلَّا أَنَّهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ سَتَكُونُ ذَاتَ جَدْوَى .
تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ.. {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ
لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } .



الخروج من الدائرة الحمراء..

دارتِ السَّيَّارَةُ شِبْهَ دَائِرَةٍ صَغِيرَةٍ فِي مَنَاطِقِ زَرَاعِيَّةٍ تُحِيطُ بِهَا الْأَسْوَامُ الْكَبِيرَةُ وَبَقَايَا
الْأَشْجَارِ.. وَقَفَزَ الدَّلِيلُ فَجْأَةً إِلَى الْأَرْضِ.. وَتَبِعْنَاهُ فِي حَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ وَحَذَرَةٍ وَاخْتَفَيْنَا
مَعَهُ خَلْفَ الشَّجِيرَاتِ.. غَادَرَتِ السَّيَّارَةُ الْمَكَانَ.. وَلَمْ نَجِدْ فُرْصَةَ الْوَدَاعِ مِنْ
صَدِيقِنَا الْمُؤَقَّتِ.. حَيْثُ انْطَلَقَ بِنَا دَلِيلُنَا سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ نُهْرُولُ حِينًا وَنَسِيرُ حِينًا
آخَرَ.. وَكَأَنَّهُ هُوَ قَدْ قَاسَ قُدْرَاتِنَا فِي الْمَرْحَلَةِ الْآنْفَى.. يَتَحَرَّكُ هُنَا وَهَنَّا.. وَتَلَفَّتْ يَمِينًا
وَشِمَالًا.. يَتَطَّلَعُ فِي الظَّالِمِ حَتَّى لَكَأَنَّهُ شَاهِدٌ أَحَدًا.. وَيَتَرَيِّثُ فِي السَّيْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ بَلَغَ
الْأَمَانَ.. كُنَّا نُحِبُّ أَنْ نَكُونَ قَرِيبًا مِنْهُ.. وَلَكِنَّا لَمْ نَسْتَطِعْ لِحَفَّةِ حَرَكَتِهِ وَمَرَاوِغَتِهِ
وَسُرْعَتِهِ الْمَفَاجِئَةِ.. سَقَطْتُ مَرَّتَيْنِ.. وَأَصَابَتْنِي حَجَرٌ فِي قَدَمِي وَتَأَلَّمْتُ مِنْهَا أَلَمًا
شَدِيدًا.. وَلَكِنِّي بَلَعْتُ الْأَلَامَ فِي غَمْرَةِ التَّوَثُّرِ.. لَمْ يَعْذُ أَحَدٌ يَفَكِّرُ فِي شَيْءٍ غَيْرِ
الْوَصُولِ بِأَمَانٍ.. إِنَّا نَنْتَظِرُ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْفَيْنَةِ أَنْ نَسْمَعَ أَهْمَارَ طَلَقَاتِ الرِّصَاصِ مِنْ هُنَا
أَوْ هُنَا.. يُخَيِّلُ إِلَيْنَا أَنَّ حَرَكَةَ الْأَشْجَارِ تُخْفِي دَبَّ يَبِّ الدَّوَرِيَّاتِ الْمَعْدَّةِ لِمِثْلِ هَذِهِ
الْأَحْوَالِ.

لقد قُتِلَ عددٌ من الشباب في مغامراتٍ كهذه.. كان منهم اثنان من قريتي.. فوجئوا
بطلقات الرصاص في أحد الأودية مع الدليل.. فمات من مات.. وضاع من ضاع..
وقُبِضَ على البقية .
تَوَجَّسَ رَهَيْبٌ يُصِيبُ المغامرَ بحياته.. ذِهنُهُ يستدعي أخباراً وأحداثاً ومُفَارَقَاتٍ..
وَيَبْلُغُ الآلامَ.. وَيَقِيءُ قَلَقاً .



الحدود..

هناك تَظْهَرُ على بُعْدِ سُرُجٍ كهربائيةٍ ! يا لِلْفَرَحَةِ !! إِنَّا منذ مغادرتنا مدينةَ عدن
لَمْ نُشَاهِدْ سُرُجاً كهربائيةً.. لعلها قريةٌ من قرى الوطن .
اعتَرَضْنَا كَثِيبٌ من الرمل الصَّلْدِ الأملس.. وكان محتبراً مثيراً للضحك الممتزج
بالخوف.. تجاوز الشاب هذه الأكمة الملساء بخفةٍ عجيبةٍ وتوارى عنَّا خلفها.. وكان
كلُّ منا يصعد إلى قممتها ثم يعود إلى أسفلها.. ازداد قلقي من هذه العَقَبَةِ الغريبة..
وتقدَّمتُ بِهَمَّةٍ وحملتُ نَعْلَيَّ ثم تَشَبَّثْتُ أطرافُ يديَّ في نُتُوءَاتِهَا المتفرقة وامتنطيتُ
الكثيبَ الأملسَ خطوةً خطوةً.. حتى تجاوزتُ القِمَّةَ.. وكذلك فعل أصحابي.. وليسوا
بأصحابٍ إِلَّا من حيثِ الصُّحْبَةِ وحدها.. أما دليلنا فقد قطع شوطاً بعيداً.. ولحقناه
بجهدٍ جَهِيدٍ.. واقتربنا من القرية التي تَشِعُّ منها أنوارُ الكهرباء.. وتقاربتِ الخُطَى..
وصرنا على مَقَرَّةٍ من ذلك الشابِّ العَجُولِ.. ثم استدار ووقف.. ثم قال:
- لقد بلغنا حدود الشمال.. أنتم الآن في أمان.. هذه القرية شمالية .
وَتَنَفَّسْتُ الصُّعْدَاءَ.. وانزاحَ عن صدري هَمٌّ ثَقِيلٌ.. وكابوسٌ رهيبٌ..
وكَدْتُ أن أعتنق ذلك الشابَّ النحيل.. إِلَّا أَنَّهُ قال لي :

- إِبْسِ الآنَ ثِيَابَكَ.. فلم يَعُدْ هناك ما يخيف غيرَ نَبْجِ الكلاب..

شيءٌ عَجِيبٌ !! هل عَرَفَ أَنِّي أَتَشَاءُ من أصواتها ؟!

ربما.. أو أننا في الهمَّ سواء.. ولبستُ ثيابي ونحن نسير.. التَّقِينَا في الطريق ببعض المزارعين يركبون الحميرَ مُبَكِّرِينَ إلى حقولهم.. فكانوا يُحْيُونَا بحدوء وبساطة.. معتقدين أننا من أهل القرى المجاورة.. تُرِيدُ التبكير إلى سوق الجمعة .

وأُطَلْتُ من بين الجبال الصغيرة قريةً تظهر لنا بيوتها الصغيرة مع وضوح الصباح.. وقبل أن ندخل القرية أشار الدليل لنا بالبقاء خلف حانوتٍ صغيرٍ ريث ما يبحث لنا عن دليل آخر يقطع بنا المسافة من هذه القرية إلى سوق الجمعة.. أما هو فقد انتهت مهمته هنا.. ولعلها المرة الأولى التي انزعجت فيها من لسان هذا الشاب الدَّؤُوب.. إذ هو - كما يقول - لن يستمر معنا أكثر من هذه القرية.. ولا زالت الطريقُ أمامنا غيرَ بَيِّنَةٍ ولا معروفة.. أخشى أن نَقَعَ في أيدي فئةٍ من الفئات التي تُتاجرُ بالنفوس.. ونحرب من سيِّئٍ إلى أسوأ.. فلقد سمعنا عمَّن تاه في الوصول على أيدي هؤلاء الأدلاء ففقد كلَّ شيء قبل أن يبلغ مرحلة الأمان.. وأسفر الضوء ونحن في موقعنا المرتفع نتأمل القرى المتناثرة على سفوح الجبال وال مزارع المبعثرة خلالها.. وتزدادُ الرؤية وضوحاً كلما أسفر ضوءُ الصباح على البسيطة..

فها هي الروابي الخضراء وأصواتُ الطيور..

ونَهيقُ الحمير ، وخُوارُ الأبقار ، وهدِيرُ المكائن المائية..

ورجالٌ يسعون هنا وهناك ، ونِسْوةٌ يَحْمِلْنَ الحطبَ وال ماء..

ونَبْضُ حياةٍ عَجِيبٌ يُشْعِرُ المرءَ بقيمته كل ما جاوزَ مرحلة الخوف والخطر..

ودَعْنَا دليلنا الشابُّ بعد أن كلَّفني بكتابة كَلِمَاتٍ على ورقةٍ كرتونيةٍ تَوَكَّدُ

وصولنا إلى القرية.. ودَسَّها في جيبه.. ثم أشار إلى ولدٍ صغيرٍ لا يجاوز السابعة عشر

من عمره وقال لنا :

- هذا دليلكم إلى سوق الجمعة.. اتفقوا معه على الأجرة .

ولا سم يسمح لأحدٍ منا بالكلام أو المناقشة.. وإنما أدار ظهره لنا وولى عائداً في طريقه التي جاء منها .

اتَّفَقْنَا مع الشابِّ على أجرةٍ معيَّنةٍ كانت تُعَدُّ شيئاً كثيراً بالنسبة لـ ما نَحْمِلُهُ من مال.. ولكنَّها تُعَدُّ بالـ مقارنة مع قيمة الأمن والاطمئنان لا تساوي شيئاً.. ذهب ذلك الشابُّ بالـ مبلغٍ وأحضر حماراً واحداً.. واعتذر عن الحصول على أكثر من ذلك إلا إذا تأخرنا قليلاً.. ولكننا رغبتنا في الذهاب.. فلا حاجة في البقاء انتظاراً لوصول حمارٍ أو حمارين.. وكما يقال في المثل ((خير البرِّ عاجله)) .

وانطلقنا بادئ ذي بدءٍ نسيرُ على الأقدام.. بينما امتطى دليلنا حماره وسار أمامنا.. كنتُ خلال هذه الانطلاقة المباركة مشغولاً بتأملٍ ما حولي من جمالٍ وجلالٍ في هذا البلد العجيب.. وما في جنباته من خيرٍ وفيرٍ وثراءٍ زراعيٍّ ونشاطٍ يترأى للعين واضحاً .

أهلُ القرى نَشِطُونَ كعادتهم.. ها هم يَمُرُّون بجوارنا على الطريق الجبليِّ الزراعيِّ.. يُحْيُونَ ويتأملُونَ الملامحَ في فضولٍ عجيبٍ واستقراءٍ مُريبٍ .

آبارٌ صغيرةٌ تـ متمدُّ متفرقةً على طول الطريق الزراعي الذي سلكناه.. تَتَجَمَّعُ عليها مع إشراقةِ الصباحِ نسوةٌ يَلْبَسْنَ اللباسَ الشماليَّ المعروف.. البنطلون النسائي الواسع والقميص الفضفاض الذي يبلغ إلى الركبة وخمار على الرأس.. وحُلِيٌّ فضيَّةٌ تـ متمدُّ على الساعدين.. وابتسامةٌ ساذجةٌ تُوزَّعُ على كل الناس بلا مناسبة ولا سبب..

وركبتُ الحمار لأول مرة ! وبذلتُ جهداً كبيراً لأستقرَّ على ظهره.. إنه أمرٌ صعبٌ أن تستقرَّ على ظهر حمار.. وخاصةً إذا كان من نوع كهذا.. فهو حمار كبير ومرتفع.. وتبدو عليه علامات الأذيةِ والتهـ مرد.. وبين القهقهة والضحك بدأتُ أستوعب المقامَ الحِميريَّ وأستقرُّ على ظهره المتحرك.. واعتدلتُ بعض الشيء على مَتْنِهِ لأواصلَ تأمُّلي في كل شيء حولي.. هندسة البناء العجيب في هذه القرى..

مَبَانٍ شامخةٌ أُقيمت على سفوح وقمم الجبال..
وفي القنوات المائية الصخرية الواسعة..
وفنٌ معماريٌّ ينتقل إلى الترع الصخرية والـ مجاري المائية..
والـ مدرجات الخضراء التي تمتد على طول وعرض الجبال..
جميلةٌ قرى الوطن.. وأهلها قومٌ من الطيّبةِ والفطرةِ بمكان.. وَيَصِلُونَ في
طِيَبَتِهِمْ أحياناً إلى حَدِّ السَّذَاجَةِ.. ولـ سمَ يَمُضِ من الوقتِ إلّا القليلُ حتى نزلتُ عن
الحمار لـ من يُجِيدُ الثَّباتَ على ظهره.. وقف الدليل في عرض الطريق الجبلي وقال :
- أنا لا أعرف هذا الطريق..؟؟

**- يا للمصيبة !! دليلٌ لا يعرف الطريق !! لماذا لم
تخبرنا من البداية ؟**

- أنا لـ سمَ أعود الذهاب إلى سوق الجمعة من هذا الطريق.. هذا طريقٌ صعبٌ .
- لقد أخبرك الدليل أن تسير بنا في هذه الطريق لأنها أكثرُ أماناً من
غيرها.. وعليك أن تستمر.. واسأل من تلتقي به من الناس .
وجهٌ بليدٌ يحمله هذا الشاب.. ودمٌ ثقیل.. عرفتُ ذلك فيه منذ أن امتطى ظهرَ
الحمار.. ونحن نسير على الأقدام منذ البداية.. ثم هو ثرثار لا يكفُ عن الكلام .
- من أنت سمَ ؟ كيف استطعت سمَ الهروب ؟ مَن هو الذي ساعدكم؟..
- لقد عرفتُ هنا الشابَّ الذي أوصلكم إلينا.. إنه من قريةٍ كذا وكذا.. إنه يُهرَّبُ
البضائع.. يخافُ أن يكشفه أحد..
- نحن لا نهرَّبُ أبداً.. نحن نتعاون مع أهل الجنوب .

كرهتُ المسير معه منذ البداية.. وحذرتُ رفاقي من الاسترسال معه في الحديث..
ولكنهم مع ذلك يندفعون معه في الحديث معه إلى درجة التَّقَرُّزِ.. كنا نسير والناس
يدُلُّوننا على الطريق.. وكأنما هم قد عرفوا قصدنا وشأننا.. حقاً إن أهل القرى
متعاونون مع الغريب.. وبلغنا إلى قرية صغيرة بناها أصحابها على صخور نائيةٍ وموقعٍ

صخريٍّ وعَرٍ ورهيب.. وكان لابد للحمار من الصعود على هذه التلوات المخيفة وتجاوزها.. وما أن تَوَسَّطْنَا مَجْرَى الماء في تلك القرية حتى خرج أهلها كباراً وصغاراً يتفرَّجون علينا ونحن نَثْبُ كالأرانب من صخرة إلى صخرة ومن نتوء إلى نتوء.. ودليلنا البلبد راكب على ظهر دابته يكلفُها عناءَ القفز والصعود .



الدليل الأحمق..

أفَّ لهذا الشاب.. لقد رَضِيتُ أن أنزل عن الحمار بعد أن سرتُ به قليلاً لكثرة غبائه وسفسطته.. الناس في القرية يُنادُون عليه أن يسير في الطريق الصحيح.. وهو يتغافل ويَتَلَكَّأ وكأنما لَمْ يَسْمَعْ أحداً.. كنتُ أقول له :

- إسمعُ يا ولد.. الناسُ ينادونك..

فيلتفتُ إليَّ ببرودٍ ويقول :

- اتركهم.. أنا أعرفُ الطريق..

- أيُّ طريقٍ تَعْرِفُها ؟ وأي رُقَّةٍ أُصِيبَتْ بِك ؟! بلاءٌ أشدُّ من بلاء الرحلة كُلِّها !

ما هذه المصيبة ؟

والتفتَ إليَّ أحدُ الناس.. كان مُطِلاً علينا من داره وسألته عن الطريق الأقرب في هذه الغابة الصخرية.. فأشار عليّ دالاً على مواقع الخروج حتى فَهَمْتُها.. فصعدتُ إليها ولحقني أصحابي وتركنا الدليل على الحمار وحده.. وانتظرناه على قمة الصخور جوار بيت رجل كريم.. استقبلنا بحفاوةٍ وإكرامٍ ولُطْفٍ يفوق الوصف.. وقال لنا : إنه قد سلك ذات الطريق بأهله حتى بلغ إلى هذا الموقع فاختره سَكَنًا.. وإنه حَقًّا لاختيارٌ غريبٌ وعجيبٌ.. كيف يرتاح على هذه الصخور ؟! وكيف يلعب صغاره

وأطفاله؟! ولربّ أمرٍ مُستغربٍ لدى على عقليةٍ بشريةٍ يكون لدى عقليةٍ أخرى هو عين الصواب .

قدّم لنا الرجلُ المضيفُ بعضَ الشاي والـماء.. وكان سيصنع لنا فطوراً إلا أننا أصرّنا على مواصلة السير.. وطلبنا منه أن يَدُلّنا على منفذ الخروج من هذه القرية إلى سوق الجمعة.. وصل صاحب الحمار.. وجلس ليشربَ الشاي وأنا منه مُشمّزٌ كلّ الاشمّزاز.. ثم جلس يتحدثُ وأنا أكادُ أتُـمزّقُ من الغيظ.. ولما أشرتُ له أن أُسرِعَ قبل أن ترتفعَ الشمس وتزدادَ الحرارة علينا ضحكٌ ملءٌ شِدْقَيْهِ.. ولم يَزِدْ على ذلك شيئاً .

قمتُ من مكاني وأشرتُ إلى الرُقّةِ بالـمسير.. وانطلقنا صَوْبَ الطريق التي حدّدها لنا الرجلُ من قبل.. وكان صعوداً إلى أعلى الجبل حتى بلغنا القمة.. فانتظرنا وانتظرنا حتى طال علينا الانتظار.. للدليل والحمار !

علّمَ رُفْقَتِي أن يكونوا أكثرَ حذراً وتَعَقُّلاً في الحديث مع هذا الرجل الأرعن.. فالخطرُ سيَحُلُّ بنا لو عَرَفَ هذا المريضُ ضَعْفَنَا وخوفنا من الطريق والناس والعسكر.. ووصل الدليل بحماره يَحْطُرُ مُغْنِياً.. وأراد أن يجلسَ فقمنا وألحنا في المسير.. فلم يترل من الحمار وإنما سار قبلنا وتبعناه في طريقٍ مُوحِشٍ مُرهقٍ بُرْهَةً من الوقت.. ثم بدّتْ لنا الخضرة ولطافة الحشائش والنسيم النديُّ من حقولٍ وافرةٍ الحَصْبِ والنّما.. وكنا على غاية من الإرهاق والتعب والإجهاد.. ووقف الدليل مرة أخرى حائراً.. ودائراً..

لـم يعد أمامنا غيرُ جبال شاهقة ووادٍ لا نهاية له.. ووقف يفكر.. قلت له:

- إذهبْ إلى أولائك النسوة في عرض الطريق واستفسر لنا عن

الطريق .

وخففتُ إحداهنَّ عليه العناء وجاءتْ بنفسها ودلّتْنا على طريق قصير.. صعوداً على جبلٍ أَجْرَدٍ لا أثرَ فيه للحياة.. يختلف اختلافاً جذرياً عن سابقه من الجبال

والطرق.. وكأنه شبيهٌ بدليلنا الذي اختلف حساً وعقلاً وخُلُقاً عن غيره من البشر هنا.

وكل ما صعدنا مسافةً في سَفْحِهِ زاد ابتعادُ قِمَّتِهِ عنا بُعْداً ملحوظاً حتى بلغ الجُهدُ مِنَّا كُلَّ مَبْلَغٍ.. وانقطع الكلام فيما بيننا وتفرَّق الجمع حتى كان كلُّ منا يبحث له عن طريقٍ يوصله إلى القمة قبل غيره.. وأشرفنا بعدَ لأيٍ ولُغوبٍ على منظرٍ خَلَّابٍ بديعٍ..
خُضْرَةٌ تَحْتَدُّ على مَدِّ العين البصرية..

تنعكس عليها أشعةُ الشمس فتُلبِّسُها حُلَّةً ذهبيةً رائعة..

وبيوتٌ منتشرةٌ على سفوح جبالٍ خضراء..

وَدُمَى بَشَرِيَّةٌ تَدُبُّ هنا وهناك ذاهبةً وآيةً..

وفجأةً قَطَعَ تَأْمُلِي وأحلامي صوتُ الدليل الغبي :

- انظر ! انظر ! أتشاهدُ ذلك المبنى الذي على الجبل الأوسط ؟

- نعم أشاهده.. أيُّ مبنى هذا ؟

- إنه مركز للحكومة.. وسنمر تحته !

- قَبَّحَكَ اللهُ من دليل ! أين أنت ذاهب بنا ؟

وأخذ يضحك ملء فيه.. ويسوقُ الحمار سوقاً عنيفاً.. لقد تأكَّد لي حينها أنه شابٌ يملك من الحُبثِ شيئاً كثيراً.. واستعدتُ بالله منه.. أدار وجهه إلى ناحية رُفَّقَتِي وقال :

- إننا لا بد أن نساعدكم.. لأننا نعتبركم لاجئين .

وكنْتُ حينها أقرأ الآيةَ الكريمة : { وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } .. وكانت طريقاً منحدرَةً إلى الأسفل.. وعِرةُ المسَلَكِ.. كثيرةُ الأشواك والحجارة.. نَلَهْتُ فيها ونَشَقَى .



الدليل والحمار..

قال الدليل فجأة :

- مَنْ يركب الحمار ؟

وحاول بعض الرفقة الركوب دون فائدة تُذكر.. إذ لا يستطيع أحدٌ أن يستقرَّ على ظهر حمار في طريق كهذه إلا لـ مألوف.. وكان الدليل يضحك عليهم بسخرية واستهزاء.. وبلغنا السهل الواسع دون خطر أو خوف.. ومررنا تحت مركز الحكومة فلـ سمَّ يَفْطَنُ أحدٌ إلينا.. ونحن كأمثالنا من الناس الوافدين على هذه الطريق إلى سوق الجمعة كل أسبوع.. قرية تحيط بها المزارع الخضراء الغنية.. وتكثر فيها الأبقار والحمير والأغنام.. إنها منطقة تجارية.. ما أكثرَ قطعان الغنم ! إنها في كل مكان تتجمع.. يسوقها أصحابها في طريقهم إلى السوق .

ودلفنا بين المزارع نحو السوق على دُفعتين.. واختلطنا ببشرٍ وعالٍ سمَّ تجاريٍّ وصَخَبٍ.. ونداءات وحياء تُذيبُ الخوفَ في محيط الأمن والحياة.. وقبل أن نَسْتَرِدَّ أنفاسنا.. مرَّتْ سيارةٌ مسافرةٌ إلى تعز.. كان صاحبها ينادي :

- تَعَزْ.. تَعَزْ.. تَعَزْ..

فتفاءلتُ بهذا النداء المبشِّرِ وقلتُ لذاتي : عِزَّةٌ أَقْبَلْتُ وَذِلَّةٌ رَحَلْتُ.. ورأيتُ الدليل مسرعاً إلى السيارة يستوقِفُها.. وكانت هذه المرة الأولى التي سُرِرْتُ فيها من دليلنا المشؤوم .



إلى تعز..

الساعة التاسعة صباحاً.. والسيارة مُتَّجِهَةٌ بنا في طريقها إلى تعز.. صخورُ الطريقِ الناتئةُ ومنعطفاته الضيقة تعرقل الانطلاق السريع للسيارة.. خلْبَني المنظر.. وشعرتُ بالارتياح يَعْمُرُ نفسي.. واستذكرتُ في هذا الموقفِ الحالَ سمِ الجامع بين فرحتي بالأمان والسلامة وهذا المنظرِ الطبيعي الخلاب وصفاً للشاعر اليمني عبدالله البردوني في كتابه «رحلة في الشعر اليمني» قوله: «هذه الأرضُ التي تَشْمُخُ جبالها حتى تَتَكَيَّ عليها النُّجُومُ.. والتي تَمْتَدُّ سُهُولُها حتى تَتَعَبَ أشْفَارُ العُيونِ في أجوائها.. وهذه الأرضُ التي تُخْصِبُ وتُخْضِرُ حتى تورق الصخور وسطوح البيوت.. والتي تَجِفُّ حتى تَعْتَصِرَ الريح لعابها.. وتحتسي الشمس ظلها.. هذه الأرض المتقلبة الأجواء.. المخضرة المكفهرة الشامخة الممتدة» انتهى .

لست أدري.. ويا سبحان الله ! تَبْتَهِجُ أساري وتحيي روحي ويُداخلني فرحٌ خَفِيٌّ يَغْمُرُ طَيَّاتِ الذاتِ المحزونة الكثيرة بمجرد أن تلتقي عَيْنَايَ بمنظرٍ طبيعيٍّ أَخَّاذٍ.. وتتحرك في جوانحي رغبةٌ تعبيرٍ وكتابةٌ شعرٍ ونثرٍ وتصوير.. وتتمحائلُ صُورٌ متشابهةٌ في مخزونِ ذاكرتي تحمِلني حملاً سريعاً إلى عالمٍ عجيبٍ من المقارناتِ والِمفارقاتِ.. فأتذكرُ في لحظةٍ واحدةٍ أكثرَ من منظرٍ وصورة.. وزمانٍ ومكان .

شيءٌ بديعٌ ! وصنْعٌ مُتَقَنَّ ! وخلقٌ لا مثالَ له ولا شبيه ! صَدَقَ الحق في تَحْدِيهِ : { هذا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ } .. شُجيراتُ النخيلِ والصَّقَافِ والدِّمَنِ والِمريمِ.. وأزاهيرُ بِيضاءٍ وحمراءُ وزرقاءُ.. وخُضْرَةٌ تَمَلأُ الواديَ من أنواعٍ لا تحصى من الأعشاب والخمائل والزهور .

وبين الفينة والفينة نتقل من منعطفٍ إلى غيره لنرى من دفع الحياة ومصنوعاتها الربانية شيئاً حسناً وبديعاً.. هناك الفلاحون على الفطرة الأولى.. الملامح والثياب والحركة والأحاسيس.. والعلاقات .

وهناك نساء على المجمععات المائية والترع الصغيرة - حلقاً حلقاً - تراهن بين غاسلة لثياب وناقلة للماء على الصفائح.. والكُل في حركة دائبة وانشغال غريب.. الكل على وجوههم إشراقة الصدق وبساطة الإنسان الحقيقي.. لا يفكرون في غير اللحظة.. ولا يعيشون إلا لها.. لا يشغلون أنفسهم وأرواحهم بأكثر مما هم فيه.. وما هو مائل تحت دائرتهم.. لم يصبهم بعد قلق الحضارة.. وتخليط المدنية.. وتعقيدات البشرية الدافعة للحرص على الحياة الحديثة بأنواعها.

لقد دمرت الحضارة الحديثة قلب الإنسان وحاله وسلوكه وآماله.. وعمرت الماديات المحيطة به.. جعلته عبداً مأسوراً لفقاعات كؤوس الواقع.. وتابعاً مجرداً عن القيم.. يُصلي ويتجه إلى حيث البريق المادي.. وأطفال الواقع المادي المعاصر هم أسرى الصناعات والمخترعات والأشكال القلبية المنحوتة على مثال الحقيقة الوجودية.. أطفال التلفزيون.. وشباب الموسيقى والسينما والحب.. وكهول الجدران الزئبقية.. وعُباد العرض والطلب والسبيل النقدية.. وشيوخ الفراغ القتال والموت البطيء والملاجئ.. ونساء الموضات والموديلات والانحرافات الفكرية.. جمع الزمان لمن كل وباء فكري وسلوكي.. كتابة وعرضاً ومعاونة.. حتى صارت الآداب متحفية والأخلاق نظرية.. والمفاسد والحريات واقعية حتى حمية.. والكل يسير في وادٍ من الأوهام والأسقام والأحكام والأنغام والآثام.

ما أكثر القرى الصغيرة في هذا الطريق! بيوت بيوت على طراز أثري في الغالب.. تحتشد متناثرة ومتجمعة على سفوح الجبال والمنحدرات والمرتفعات.. ورغم كثرتنا في السيارة «التويوتا» الصغيرة المكشوفة إلا أن أحداً منا لم يتجرأ على سؤال واحد عن هذه القرى وأسمائها.

مركز شرطة يرفرف عليه علم الجمهورية العربية اليمنية.. إنها أول لحظة في حياتي أشاهد علماً مرفوعاً خارج تجربتي الوجودية الأولى.. لقد كنت خلال حياتي الماضية لا أشاهد إلا علماً يمثل شقاً واحداً وتضطف تحت رموز متباينة.. منها من يرغب في

التَّطَلُّعُ الدائب إلى خفقان الراية على الوطن بهذه الصورة المشطورة.. ومنها من يحنُّ للراية الأخرى.. ومنها من له أملٌ أكثر اتساعاً وشمولاً.. والكلُّ يُقَسِّمُونَ قَسَمًا ذا لحنٍ واحدٍ ونشيدٍ واحدٍ.. وبدايةٍ ونهايةٍ واحدةٍ.. والتَّشَارُ في العادة لا يُرْغَب فيه ولا يَطُولُ دَوَامُهُ .



سوق الجمعة..

أُطْلُ سائقُ السيارة من نافذته مخاطباً للجندي الحارس على الخشبة الفاصلة، وقال بعد السلام :

- من سوق الجمعة.. كلُّهم أصحابنا.. معارفنا !!

وفتح الجندي الطريق وانطلقنا إلى مسافاتٍ جديدةٍ أحلى وأجلى.. ولَمْ تَطُلْ بنا المسافة سوى قليلٍ من الزمن حتى وصلنا إلى قرية صغيرة.. وَقَفْتُ بها السيارة وسط زَحَمٍ بشريٍّ وحركةٍ تجاريةٍ وزراعيةٍ غريبةٍ لَمْ نَأْلَفْها ولَمْ نَعْرِفْها في حياتنا إطلاقاً.. كلُّ شيءٍ يتداخل في الزحام مع غيره.. حتى الكلاب والحمير.. شعرتُ بفرحةٍ عظمى تغمرني ممتزجةً برغبةٍ في البكاء أَخْفَيْتُها في أحاديثٍ متصلةٍ مع رفقتي ونحن في طريقنا إلى مطعمٍ قريبٍ.. لقد رأيتُ حياةً حقيقيةً.. والبسطاء يبيعون ويشترون في انسجامٍ واحترام.. لا يرفعون رؤوسهم إلا ليعيدوها في بضائعهم.. مُشْتَرَوَاتِهِمْ ومبيعاتِهِمْ.. لَمْ يَتَطَلَّعْ أَحَدٌ منهم في وجوهنا ولَمْ يَسْأَلْ أَحَدٌ عنا ولا عن هُويَّتِنَا.. ولا يُهْمُّهُمْ مَنْ نحن؟ وإلى أين نريد؟ أسقطوا من عقولهم مرضاً أُصِيبَ به غيرُهم حتى فقدوا الثقةَ بينهم.. والأمن في كلِّ مَفْقُودٍ.. حتى بين الرجل وأهله وأبنائه.. بل وذاته!

يا للعجب ! على كثرة البشرية المكثفة في هذه القرية لـ سم أشهد واحداً منهم أدركَ
غربي أو قلقي ، يضحكون فيما بينهم ، حتى ترى السعادة متناثرةً في الأرجاء ، لا
حزنٌ ولا أحزانٌ ، ولا قلقٌ ولا إقلاق ، وجوهٌ طَرِيَّةٌ فطرية ، وأوقاتٌ متحركةٌ
عملية..

دخلنا إلى المطعم في جوٍّ من الدهشة والاستغراب ، فلا شيء في الوجود يستدعي
الدهشة سوى سلوك الإنسان.. والإنسان وحده.. وقعتُ عيني في جانب من جوانب
المطعم على عدد من المصريين يظهر من ملاحظهم أنهم غرباء مثلنا.. غرباء عن القرية
وغرباء عن الفطرة والبساطة ، جاءوا من حجةٍ معاتٍ غُسلَ الإنسان فيها بوَحْلٍ
الحضارة وتعقيداتها ، رأيتهم يتابعون مثلنا حركةَ الزخم البشري المنسجم على فطرته .
لقد ازدَدْتُ اطمئناناً ساعةَ رأيتُ المصريين.. فقد عرفتُ أنهم من المدرِّسين بالقرية..
وأنا الآن قد أصبحنا في عمق شمال الوطن.. وفرص الأمان قد أصبحت حقيقية « مئة
في المئة » كما يقولون.. ولُنُوْدِّعُ قَلَقَ الأمس في اطمئنان اليوم .



الراحدة..

هذه مدينة ((الراحدة)) .. وسألتُ زميلي : « كم الساعة ؟ » فكانت الثانية عشر
ظهراً.. لقد قطعنا ثلاثَ ساعاتٍ في رحلتنا من سوق الجمعة إلى هذه المدينة الجميلة..
لـ سم نتوقف إلا في مراكز التفتيش وفي قرية صاحبة بالحركة التجارية.. الشمس قد
أحرقت الجلود.. واستهلكت طاقة الأملاح المخزونة.. ((الراحدة)) مدينةٌ جميلةٌ بحق..
تزدحم بالأشياء من كل صنف ومرتبة.. البشر.. السيارات.. الدراجات النارية.. البقر
والغنم.. وعربات الحمير.. وبضائعٌ من كلِّ شكلٍ ولونٍ وحجمٍ.. محليةٌ وأجنبيةٌ..

كلُّها معروضةٌ على صعيدٍ واحدٍ في الحوانيت.. وعلى أرصفة الشوارع.. وعلى مؤخِّرة السيارات.. وعلى أبواب المساجد وال منازل.. الكلُّ يبيِّعُ والكلُّ يشتري..

ال مؤذِّنُ يصدح بالأذان لصلاة الجمعة من عدَّة مساجد.. وينتشر بها في القلب المؤمن أريجُ الإيمان والاطمئنان.. دخلنا مشرباً صغيراً لنشرب شيئاً قبل مواصلة الرحلة إلى تعزٍّ.. وأشرتُ على صاحب المشرب أن يمنحني كأساً من الليمون.. فهو أكثر إطفاءً للحرارة والتعب.. ووضعتُ الكأسَ على فمي أرشُفُ الليمون وأتأَمَّل الأشياء المتناثرة في ذلك المشرب الصغير.. المعلبات بأنواعها.. القوارير المعبأة بما لذَّ وطاب من العصير والسوائل.. وال حمياه المعدنية المعلبة.. وعلب النعنع والحلويات والبسكويت.. وطاولات لألعاب مختلفة.. وجهاز لسباق السيارات الكهربائية.. ومنافخ وسرج.. وأشياء مجموعة ومتفرقة يتعب الناظر في ملاحقتها ورؤيتها.. وفي غمرة هذا الانسجام بين الشرب والتأمل وقفتُ سيارتنا على باب المشرب إيداناً بالارتحال.. ونقدنا صاحب المشرب نقوده.. وركبنا السيارة في طريقنا إلى مدينة تعزٍّ.

طريقٌ معبَّدٌ ومنظَّمٌ ونظيفٌ.. يُدخِلُ الرائيَ إلى عالمٍ حالِمٍ من الارتياح والسكون والانسجام.. وهناك بَوْنٌ شاسعٌ بين هذه الطريق وبين تلك المنعرجات وال منعطفات التي كابَدَناها لثلاثِ ساعاتٍ متوالية.. ولعل الإحساس بالإيمان يجعل المرءَ يفكرُ في مرحلة الهدوء.. وتنتبه حواسه المطاطية إلى المفارقات وال محابيات هنا.. بينما كانت في الحال الآنف لا تفكر إلا في الأمن والسلامة وحدها.. ولو على طريق مفروش بالأشواك.. توقفنا وقتاً قصيراً أمام نقطة تفتيشٍ هامةٍ ودار في الموقع حوار شديدٌ بين السائق والجنود حول بعض الإجراءات الروتينية لحمل الركاب.. وكاد الجنود أن يخرجونا من سيارتنا لنبحث عن غيرها.. ولكن الموقف تغير بمجرد ذهاب السائق مع الضابط إلى الخيمة المجاورة.. وسمح لنا بمواصلة الرحلة .

الطريق تنطوي طيَّ السحاب للطائرة.. ونرى القرى الصغيرة المتناثرة تنتشر على جانبي الطريق الزراعي الخصب.. وأمام كل قرية نقرأ لافتةً عريضةً تحمل اسمها.. والحقول والـ مزارع الخاصة تحتشد مد الأفق احتشاداً.. والفلاحون والفلاحات بين ساعٍ وراكبٍ وقائمٍ وقاعدٍ.. ونسوةٌ يركبن الحميرَ بين المزارع والحقول ذاهباتٍ آياتٍ.. ودراجاتٍ ناريةٍ بأعدادٍ تفوقُ التَّصوُّرَ .

لـ سم أصدق نفسي عندما وجدت سيارتنا على هذه الطريق الطويل تحيط بها أكثر من عشر دراجات نارية ! كلها تود أن نفسح لها الطريق لتـ ممر قبلنا .

إنه جنون الحضارة المادية الواضح كلـ ما اقترب المرء من المدينة.. يُشعرُ الإنسانَ بالدُّوارِ من كثرة الصُّخَبِ.. ما أجمل الجسور.. بـ نـ يت بعناية فائقة على بعض الأودية الخضراء.. وألوان تجتذب العقل واللبَّ حتى ينطلق في قيد التأمل مأسورا .

الجوُّ يتلبَّدُ بالغيوم.. وكلـ ما انطوت الطريق لنا تتكثف السحب وتَسودُّ السماء.. وانهمر المطر رذاذاً ثم أصبح كالقربِ النازلة.. والتَّحَفْتُ بعمامةٍ بيضاء كانت في حقيتي.. بينما كان عددٌ من الركاب يقبعون تحت كابينة السيارة طلباً للدَّفءِ والحماية من الأمطار.. وظهرت المنازل البيضاء والسيارات الجميلة والـ معالـ مـ المتناسقة الحضارية.. أعمدة الكهرباء والإعلانات والدعايات والـ معارض الجميلة .. وكانت مدينةٌ تعز !

دخلنا مدينة التاريخ الأثيل.. في جوٍّ جميل.. فامتلاً فؤادي هدوءً وانسجاماً وحباً للحياة.. تذكرتُ ما كنتُ أسمعُه في كتب الحديث عن خروج أهل النار إلى الجنة.. حيث يغسلون في نهر الحياة فينبتون كما تنبتُ الحَبَّةُ في حَمأةٍ السَّيلِ.. مدينةٌ ضخمةٌ واسعةٌ ونظيفة.. وعمرانٌ حديثٌ ومُنسَّقٌ.. وحركة للبشر والآليات لا توصف ! كنتُ أتوقع بين الفينة والأخرى أننا سنقطع شارع المدينة حتى نبلغ آخرها ونقف.. ولكن - ويا للعجب - طال المسير والانطلاق وكأنما هي أفعى تـ متمد وتـ متمد !

وكل ما توغلنا في شوارعها تتسع اتساع القلب ل محبيه ! يا هُول المفارقة ! لقد
ألفنا رُكوداً ورتابةً وتذمراً.. وفراغاً مُدمراً.. وهانحن اليوم ندوب في الناس.. نضيع في
الزحام.. نبهر بالواقع !!



إلى الحديدية..

- الحديدية.. الحديدية..

هكذا كان الصوت المتردد يرتفع كل ما اقتربنا من زحام السيارات في الموقف..
وحَدَّقْتُ بعيني في عالٍ سم لا يُدرِك طَرَفُهُ من طَرَفِهِ.. الكلُّ يحتشدون في ميدان عام
حول موقف السيارات الرسمي بمدينة ((تَعَزَّ)).. وبحثُّ بأذني وعيني عن مصدر الصوت
المنادي: الحديدية.. الحديدية.. ولا سم تزل سيارتنا تسير ببطء في الزحام لتبلغ موقعها
النهائي.. والامطر يكاد أن يخفي عني رؤية الخلق كل ما تكتنف البرودة على
الزجاج.. ودلفت إلى الخارج بمجرد استقرار السيارة في موقفها.. وهرع إلينا الأدلاء..

- الحديدية.. الحديدية..

فقلت: نعم.. الحديدية..

وقال رفقتي :

- نحن أيضا نريد الحديدية..

وببشاشة المحب للحياة فتح لنا باب سيارته ((البيجوت)) الحديثة ذات الأربعة
أبواب ((صالون)) ودلفنا إلى الداخل.. ما أمتع الرؤية من خلف الجدران الزجاجية..
وما أمتع الوقت الذي يمر في جو متلبد بالغيوم الممطرة على شخصيات تبحث عن
نماء في نماء.. وتحتز نفوسها وتربو بين المجاملات الإنسانية الجديدة ومطر السماء..

وامتلأت السيارة بالركاب.. ولم يمض من الوقت إلا القليل حتى كنا في طريقنا إلى الحديدة .

انقشعت السُحُبُ المتلبّدة رويداً رويداً.. وانزاحت الغيوم بمجرد توغلنا في صحراء واسعة لا نهاية لها في نظر العين المجردة.. صحراء واسعة تفصل بين مدينة الحياة وميناء الحديدة.. بدأت الشمس المحرقة ترسل أشعةً ملتهبَةً التهاباً شديداً.. وبدأ العرق يتصبب من الأجسام.. وبدأ الملل يرتسم على الوجوه.. أدرك السائق ما نعانیه من تغير الجو.. ففتح جهاز التسجيل بأغنية.. وانطوت مسافة الطريق بين الصمت والتأمل والسبات.. ولم يتكلم منا أحدٌ مع غيره.. خَشْيَةً تَسْرُبُ الأحاديث الموقعة في عودة دائرة الخوف التي كُنَّا ضِمْنَهَا قبل ساعات قلائل.. ووقفت السيارة في قرية صغيرة تَحْتَرِقُهَا الطريق.. وخلدنا إلى شيء من الراحة والاستجمام بعد التبرم والضيق من وطأة الحر ولهيب الشمس المحرقة.. حتى نادى السائق على الجميع بمواصلة الرحلة.



أبناء العم..

الحديدة.. مدينة ضخمة حقاً وكبيرة وحديثة المباني وال مشاريع والحركة التجارية.. مدينة تَرِبُضُ على ساحل البحر الأحمر.. وتتلقى نسيمه العليل وسُحْبِهِ الركامية لترسلها إلى المرتفعات قبل أن تجود بنقطة مطر واحدة.. فلذلك يشد الحر في هذه المدينة اشتداداً.. ويزيد على هذا الحر المزعج كثرة الحركة الآلية.. بحيث تفوق تصوُّرَ مَنْ لَا يَأْلَفُ الزَّحَامَ.. سياراتٌ من كلِّ حجمٍ ولونٍ تَغْصُ بها الشوارع غصاً.. ودراجات نارية كأنها النمل في مملكته.. ويتداخل غبار الطريق التراخي بدخان

السيارات ودخان السجائر والمصانع الصغيرة.. وسألت راكبا في السيارة عند وقوفنا في محطة الوقوف العام :

- كم الساعة ؟

- الرابعة عصرا .

ونقّدتُ السائقَ أُجْرَتَه.. وودعتُ رفقة الرحلة الطويلة.. وأشرّتُ على عربة الأجرة الرسمية لأركب إلى عنواني المقصود.. وقفت السيارة تحت عمارة ضخمة كبيرة فخمة.. ونزلتُ إلى بابها والتفتُ إلى نفسي فرأيتُ أُنِي غريبٌ كلَّ الغرابة في هذا المبنى الجميل الحديث !

ملابسي.. جسمي.. أدواتي.. حقيقتي.. الكلُّ يستحقُّ الرّثاء.. لا يصلحُ أن يكون عنصرَ مدينةٍ جميلةٍ كهذه.. ربما صلح للاسة حمار في مغامرةٍ كذلك.. لا بدَّ من التفكير قبل الدخول إلى الدار .

تحسستُ جيبِي فوجدتُ وُريقاتٍ من العملة اليمنية.. ونزلت متخذاً لي طريقاً خاصاً إلى معرضٍ لاحظتُ فيه أنواع الملابس.. أخذتُ ما أحتاج إليه منها دون أن أُكثر الحديث.. وفي أسفل العمارة دَسَسْتُ كلَّ مشترياتي في الحقيبة الزرقاء.. وضغطت الزرَّ الكهربائي بعد تردُّدٍ وتقرُّزٍ لحالي ونفسي وملابسي.. وأطلَّ ابنُ عمي «عمر» وارتسمت علامات الدهشة الممزوجة بالفرح ، ودلفت إلى الداخل الأُمْنِيّ الحقيقي.. وانتهت مسافةُ الخوفِ حسّاً ومعنى.. وتنفّستُ الصُّعْدَاءَ بعد رحلة الأعصاب السريعة.. أربعٌ وعِشرونَ ساعة.. بلا هُويّة.. وبلا قَلْبٍ..

ويا للعجب !.. هاأنا ذا أبحثُ عن مكانٍ أُخْفِي فيه مُخَلَّفَاتِ رحلتي.. الثياب.. والأحذية.. والحقيبة.. ووجدته خلف العمارة الكبيرة في شارع عبد المغني .



الحديدة..

أعجبتني هذه المدينة الصاخبة.. ضخامتها.. تخطيطها.. اتساعها.. حركتها العمرانية.. تجارها المتنامية.. زخم البشرية المتلهّف.. كل شيء فيها يتحرك بسرعة واجتهاد ، وكل ذلك رمزٌ ظاهرٌ فيها لأمثالي ؛ ولكنّ بها من العيوب الشيء الكثير . ولعلّ مُكثّني بها تحت طائلة الأمن والاطمئنان جعلني أحفرُ عن العيوب ، وأتناول الأمور بعمقٍ أكثرَ من المشاهدة السطحية ، وهم يقولون عند مقارنتهم للماضي والحاضر: إن البلاد عموماً قد دخلت طَوْرًا جديدًا من الإشراق والازدهار . إنها مدينة ينقصها النظام أولاً ، فوضى سائدة ومشروعةٌ في ذات الوقت ، حيث إنّ الغالبية العظمى هم اليمينيون ، فيعتبرون الأرض مُلكَهُم والقوانين مستوردةً.. ولا يلتزم بها إلا من يخشى الحكومة ، ومن ليس له بها نصيبٌ ولا مُؤازر.

سائقو السيارات والدراجات لا يلتزمون بقوانين المرور ولا آداب الطريق العام ، يرتكبون المخالفات وبشجاعة غريبة ، ويدافعون عن أنفسهم وعن أخطائهم وكأنما لا سم يرتكبوا مخالفة قط ، رجلُ المرور لا تعرف مهمته إلا بعد أن تراه أياماً وتألّف منظره ، بحيث يتبين لك من سلوكه أنه مسؤول النظام ، ملابسه لا تدل على وظيفته، وقَفْتُهُ في الشارع لتنظيم المرور لا تحمل طابع الجِدِّيَّة والاهتِمام ، كلُّ ما في الأمر أنه يحمل في يده صافرة مرور ، ويكد جاهدًا برجليه بعد كل تصفير ليقنع المتهملين بالالتزام ، وحتى دراجة المرور هي نفس الدراجة العادية التي يستخدمها المواطن العادي حجماً ولوناً وتركيباً !

الأوساخ والأتربة تغطي شوارع الحديدة الرئيسة والفرعية ، وعمال البلدية يظهرون فرادى في الصباح الباكر يحملون المكناس ليمروا بها مرور الكرام - كما يقال - على

بعض الأوراق والنفايات المرمية على الأرض ويتركون الباقي من الأتربة إلى الغد..
وهكذا !

حفائر الإصلاح متعددة على طول مسافة بعض الشوارع وعرضها ، أعمال الصيانة والكهرباء والهاتف والبلدية ، وبعضها مُتَدُّ منذ زمنٍ طويلٍ كأنما هي حفائر تنقيبٍ عن المعادن ولا سمِ يهتَم بها أحد ، وصارت المدينة بها مشوهة ومعطلة .

« الكورنيش » - كما يطلقون عليه - يثير التقزز من روائح الأسماك التنتنة والقاذورات المنتشرة بحيث لا يمكن الوقوف أو المشاهدة إلا لـ من أصيب بالتشبع الجرثومي ، أو دَعَتْهُ الحاجة لشراء السمك أو غير ذلك، مع أن هناك «شركة كورية» تعمل في إصلاح المجاري، ولست أدري كيف يطبق العمال تلك الروائح بصفة دائمة؟ إن رائحة السمك الطبيعية إلى حدٍّ ما يقبلها الإنسان ولا يتأفف منها كما يتأفف من بقايا السمك والأحوات التي يتناثر منها الدود في أرجاء الساحل البحري والكورنيش المَعْتَم .

وزيُّ المواطن التقليديّ زيٌّ غيرُ متناسقٍ فيما رأيتُ.. إما قميصٌ فضفاض إلى نصفِ الساق.. أو خليطٌ من الملابس المختلفة التي يمتزج فيها اللباس اليميني التقليدي بحشد من الأزياء الأخرى.. وليتَّهَمُ يلبسون ثياباً نظيفة.. إنها ظاهرةٌ تكاد تكون عامة في مدينة الحديدة . لأنهم في غالب الأمر عمال وتجارٌ مباشرٌون للأوساخ والأتربة.. ومع ذلك فهم لا يتخلَّوْنَ عن ذلك الخنجر الكبير الذي يلتصق بأسفل الذَّقْن.. ولهم به عِزَّةٌ وأيُّ عِزَّةٍ.. لأنه يمثل صَمِيمَ التراث كما يقولون ؛ ولكنَّ وَجْهَةَ نظري أنَّ التراث والاعتزاز به يأتي بواسطة العلم وال معرفة وملائمة الواقع المتطور.. مظهرًا ومضمونًا.. فالتراث ليس قميصاً وسخاً ولا خنجراً كبيراً.. وإنما هي وسائلٌ كانت ملازمةً وملائمةً لعصورٍ مَضَتْ.. وإحيائها أمرٌ لا بأس به إذا استطاع حاملها أن يُكْرِمَهَا وَيَعِي شَأْنَهَا..

التراث في رأيي - والله أعلم - دفاعُ اليميني المستهيمت عن الفكر الإسلامي الصحيح.. الذي كان لأجداده فيه دورُ الثَّصْرَةِ والانتشار في تَحُومِ الأرض وأطرافها..

مستخدماً كلّ الأسباب الحديثة المعاصرة لهذا الإحياء النبيل.. إن اليميني المعاصر ترحف عليه سمات الحضارة الحديثة في مظهر مدنيته.. وتدمر عليه تراثه الفكري العظيم.. وهو وغيره يصرخون صراخ المستهين على الالتزام بالقميص والخنجر .



مكتب البريد..

مكتب البريد بالحديدة كانت لي إليه زياراتٌ متعددة.. ولعله الصورة الهامة التي يلتقي في إطارها اليمينيون مع غيرهم من العرب وال مسلمين.. وهو المنفذ الهام للاتصال بالأحباء في الخارج.. ملابس الموظفين فيه متباينة.. ولا يدلّ مظهر أحدهم على أنه موظف في البريد.. والأبشع من هذا أنهم يمضغون القات على مكاتبهم.. وأمام أجهزة الحساب والهاتف وغيرها.. على وجوههم بروذ وسداجة مفتعلة.. تخاطب أحدهم لينتهي لك عملاً وهو مستغرق في مضغ القات أو الحديث مع زملائه. دخل رجلٌ في قدميه قيدٌ يرْسُفُ فيه ويحملُ بيده حبلاً متصلاً بالقيد الحديديّ حتى لا يعوقه عن الحركة.. أثار المنظر عجب الجميع.. ودخل خلفه جنديٌّ لا يدلّ مظهره العام على ذلك.. وإنما قيل لنا : إنه جندي.. مظهرٌ بشعٌ أن ترى في مدينة حديثة كالخديدة رجلاً بقيد حديديّ يُسمح له أن يتجوّل.. وجنديّاً رسمياً يخرج مع سجين إلى الإدارات الرسمية ولا يلبسُ البزة العسكرية.. الأجانب يتطلعون باستغراب ودهشة.. وأنا أتطلعُ بألم وأسف.. وال معتادون على ذلك لا ينظرون إلى كل هذه الأمور.. أهذه صورة من صور الاعتزاز بالتراث أيضاً؟! ال مسدّس الناريّ ظاهرة حضارية في الحديدة.. يُلْفُون حوله مندبلاً ويدُسُّونه تحت الحزام.. قال لي أحدهم :

- هنا قرية يمنية معروفة تُباع فيها الأسلحة على اختلاف أنواعها وأحجامها.. بدايةً بالمدفع الثقيل إلى طلقة المسدس الصغيرة.. والقنابل.. والديناميت.. والألغام.. كلها هناك مفروشة ومعرضة قريباً من الموز والعنب والتفاح.. و.. كلُّ شيء بثمنه .



مشكلة الحضارة والتمدن..

ليت هؤلاء يتعرّفون إلى معنى المظاهر الحضارية فيلتزمون معها الاعتدال لتكون اليمن حضارية الماضي والحاضر.. إن النظام شكل من أشكال الحضارة ينبثق من المضامين التراثية.. والأمن والاقتصاد والموصلات وتخطيط المدن والخدمات والمرور والكهرباء والهاتف وغيرها من عناصر المدينة الحضارية.. إلا أن لكل أمة تاريخاً عريقاً وتراثاً مزدهراً.. ولعل اليمن أُمٌّ من أُمّهات الحضارة العريقة في التاريخ الإنساني عموماً.. إن العلة لا تكمن في رَصَفِ المظاهر المستوردة.. وإنما هي ناخرة في العقلية البشرية الحائرة .

وَنَقِفْ آخَرَ ما نَقِفُ عليه من العلل والأمراض على السُّمِّ الزُّعَافِ الذي حَدَرَ العقلَ اليمنيَّ عصوراً وأوقعه في نكباتِ الحياة.. إنه يَفْتِكُ بهم فتكاً ذريعاً.. وماذا عساكَ أن تقولَ وكلُّ الناس يمضغون ؟

ومضغُ محتوياتِ دفاتري أقربُ إليَّ من إقناعِ شعبٍ لا يوالي أحداً.. ولا يعترف بسلطان أحد.. ولا يدركُ الأفرادُ فيه مصلحتهم حتى بالقوانين.. ولا يوجد للقانون على الأغلبية سلطان.. إنه شعبٌ لا يؤمن بالقناعات السِّلمية لأنه عاش العنف وربّما على آثاره.. ولكل قاعدةٍ شذوذٌ أو شواذٌ.. ولا حكم في المجموع على الشذوذ.. حتى يَجْبُرَ الشُّذُودُ المستقيمُ قاعدةَ الانحرافِ على العودِ إلى الجادةِ المثلى..

وتلك مشكلةٌ حلُّها ليس بيدي..

أبو بكر بن علي المشهور
الحديدة - ذي القعدة ١٤٠٠
سنة حبر ١٩٨٠

القِسْمُ الثَّانِي مِنَ الْحُدُودِ إِلَى الْحِجَازِ

التقرير الثاني

دَعْنِي أَكْفِكُفُ سَحَّ الدَّمْعِ يَا زَمَنِي
دَخَلْتُ دُنْيَا سُرُورِي مِنْ مَنَافِذِهَا
وَنَلْتُ مَا كَانَ حُلًا مَا فِي مُحِيطِي
كَالطَّيْرِ مِنْ قَفْصِ السَّجَانِ مُنْقَلِتٍ
الشَّوْقُ وَالتَّوَقُّوُ وَالْإِعْتَاقُ مُنْسَجِمٌ
وَالْهَمُّ لَوْ دَخَلَ التَّدْمِيرُ سَاحَتَهُ
وَالْعَزْمُ يَسْتَنْهِضُ الْأَدْنَى لَا مَطْلَعُ
قَدْ كُنْتُ فِي بَيْتَةٍ حَرَاءٍ تُثْقِلُنِي
سُلِبْتُ حُرِّيَّتِي حَتَّى ظَنَنْتُ بِهَا
كَانَتْ مُجَاهَرَّتِي بِالْحَقِّ مُتَقَصَّةً
أَسْتَمِرُّ الْمَرْءَ عَلَّ الدَّهْرَ يَمْنَحُنِي
لَكِنْ مَرَحَلَتِي كَادَتْ تُدَمِّرُنِي
وَجَدْتُ لِي فِي بِلَادِ الْعَيْرِ مُتَّسِعاً
سُبْحَانَكَ اللَّهُ رَبِّي أَنْتَ مُعْتَمِدِي

فَقَدْ مَضَتْ دَوْلَةُ الْأَلَامِ وَالْحَزَنُ
وَجُزْتُ مَرَحَلَةَ الْأَخْطَارِ وَالْمَحَنُ
أَطُوفُ مُنْطَلِقاً فِي الرَّيْفِ وَالْمَدُنِ
حُرِّيَّةُ الذَّاتِ تَحْوِي أَشْرَفَ الْمَنَنِ
فِي لَحْنِ أَنْشُودَةٍ فَاقَتْ عَلَى زَمَنِي
قَضَّ الْمَنَامُ وَجَاءَ الصَّبْرُ بِالْوَهَنِ
تَقَاصَرَتْ دُونُهُ آمَالُ ذِي وَسَنِ
وَتَثَبَّتُ الشُّوْكَ فِي قَلْبِي لِيُؤْخِرَنِي
ظَنّاً قَبِيحاً وَخِفْتُ الْقُبْحَ يَأْسُرُنِي
وَبُحَّ صَوْتِي فِي سِرِّي وَفِي عَلَنِي
مِنْ بَعْضِ فُرْصَتِهِ مَاءٌ بِلَا أَسَنِ
لَوْلَا خُرُوجِي بِلَا زَادٍ مِنَ الْوَطَنِ
وَكُنْتُ فِي بِلَدِي أَخْشَى مِنَ الْفِتَنِ
فِي كُلِّ حَالٍ وَمِنْكَ الْفَضْلُ يَسْبِغُنِي



في انتظار البرقية..

- لا يَهْطُلُ المطر في الحديدِ رَغَمَ كثافةِ السُّحُبِ..

هكذا قال لي ابن عمي « أحمد » أن سَحُبَ الحديدِ « ترانزيت » تنطلق إلى المرتفعات.. ويكفي هنا أن نستمتع بظلالها المؤقتة .

نعم اعتبرت نفسي منذ أن برَدَتْ أقدامي عن السعي المقلق في طريق المغامرة المفاجئة أُدْخِلُ فترة استجمامٍ وراحةٍ واستعادةٍ أنفاسٍ وتقديرٍ.. فالحدث في ذاته قصير الزمن إلا أنه فاصلٌ بين مرحلتين من الحياة كلاهما على جانبٍ من الأهمية ولا شك.

هأنذا أقبع في مدينة الحديدِ أنتظرُ جواباً من أسرتي في العربية السعودية.. أعتقد أن برقياتي الثلاث كافلة لإخطارهم بمكاني.. « عُمَر » ابن عمي يؤكد لي سوء الأساليب المتبعة في تسليم البرقيات.. لعله أراد أن يخفف قلق الانتظار.. لقد كان يُسَلِّني كل ما رأى بوادِرِ قلقٍ خفيةٍ تحتاج وجهي.. وقد يطلب مني مصاحبته على سيارته لنقوم بجولة في البحر.

كان لدي وقتٌ مفتوحٌ لا حدَّ لآخره حتى أجِدَ رَدّاً على برقياتي.. إذن لا بد أن أتوزَّعَ بين المواقع لأشغلَ الوقتَ وأذيبَ التفكير.. هناك مصنعٌ « للآيس كريم » يملكه أبناء عمي في طرف المدينة يذهبان إليه صباحاً ومساءً.. كنتُ أشاركهم الذهاب.. وأشغل نفسي بالقراءة والكتابة.. وقد نذهب في نزهةٍ خاطفةٍ إلى « كيلو ١٦ » حيث توجد آبار الماء العذب.. نستمتع بالسباحة في البركة الكبيرة بين تعليقات بعضنا على بعض أو امتصاص فضول المارة وأصحاب السيارات القادمين لذات الغرض..

هناك على بعد أمتار من المتزل توجد حديقةٌ عامَّةٌ كتب عليها «حديقة الشعب».. وفي أحد زواياها توجد مكتبة صغيرة كتب عليها «مكتبة الشعب».. ومع سعة اللافتة لسم أرأى أحداً من الشعب يزور المكتبة طيلة وجودي بالحديدة سوى راعيها

الذي يجلس في ركن المكتبة يعضغ « القات » ويتصفح الجرائد وال مجلات.. ل سم يعجبه نه ي ترتيب المكتبة ولا تنظيم رفوفها.. كلُّ شيءٍ فيها مهملاً وغيرُ مرتب رغم احتوائها على كتب ذات قيمة تاريخية وأدبية ، ومجلدات ضخمة وذات أهمية . ل سم أتردد كثيراً على هذه المحتويات المبعثرة.. بل كنت أكتفي بالجلوس أمامها على أحد كراسي الحديقة أشرب كوباً من الشاي تحت ظل الشجيرات منشغلاً بكتابة شيء مما ألفتُهُ في حياتي.

وكم كانت مُنيّتي أن تنظم هذه الحديقة الواقعة في قلب المدينة الصاخبة المزدهمة.. إنها حديقةٌ تفتقر إلى أبسط شروط الحدائق.. فضلاً عن أهمها.. إنها حديقةٌ لا توجد بها شجيراتٌ تحمل أزهاراً.. وإنما وُزعت في أرجائها كُتلٌ من الشجيرات الغابية وشجيراتٌ من النوع الشوكي الصحراويّ البَشع مظهرًا وأثراً.. ولست أدري كيف ت سم اختياره في حديقة كهذه؟! وهناك مساحات أخرى فارغة ت حمماً من أي شيء .

في وسط الحديقة مبنى فخّم ومدور البناء تُباع فيه أنواع المأكولات.. وبه عناية طيبة ونظافة بيّنة.. شيءٌ غريب!!

ال موقع الذي يُغذّي فيه الجسدُ به عناية فائقة حسّاً ومعنى.. وال موقع الذي يغذّي فيه الروح مهملاً كل الإهمال.. لعل هذا هو حال الواقع البشري.. يمكن لك أن تشاهد المارة والسيارات وال مباني من داخل المقهى.. فحيطانه مركبة من زجاج شفافٍ وسميك . وهناك شيءٌ عجيبٌ.. الناس تغمرهم سحائب اللّهُث وراء الحياة.. إنه لا يهت حمون بجوانب العطاء الجمالي إلا بمقدار.. إن أحداً من هؤلاء البشر المتدفقين على الحديقة ل سم أراه خلّدَ فيها أو في مكتبتها للراحة والتأمل.. أو حتى للتطلّع إلى شيءٍ من مفارقاتها الجمالية القليلة.. كلُّ من يزور الحديقة من العمال

وال مسافرين وبعض الأجانب.. أراهم يقضون غرضهم في عَجَلَةٍ غريبةٍ ثم يغادرون.. نعم هناك عددٌ من الشباب أَلْفُوا مجلساً في جوار المقهى يلعبون « الدومينو » أمام جهاز التلفزيون منذ أن تفتح البرامج الرسمية وإلى وقتٍ متأخرٍ من الليل.. ربما ذهب أحدهم فترةً من الوقت ثم عاد إلى دائرة اللعب من جديد .

لقد قال لي بعضهم : إن راحة أهل الحديد تكمن في مجالس القات وفي متابعتهم لأعمالهم المختلفة.. إنهم ليسوا فارغين حتى يستمتعوا بمظاهر الحياة الجمالية .

لقد صرَفْتُ وقتاً ليس بالقصير.. وجهداً ليس باليسير.. حتى أروِّضَ نفسي مع المجتة مع الجديد.. إنه ليس من السهل على الفرد أن يتخلص من أساليب حياة عاشها رَدْحاً من عمره.. كما أنه ليس من السهل أن يستوعبَ عاداتٍ وتقاليدَ وطباعاً ووجهاتِ نظرٍ جديدةً بمجرد حلوله ضيفاً على مجتة مع جديدٍ .

هناك من الناس من يتأقلم بمون بسهولةٍ ويُسرٍ.. بل ويهضمون الواقع على علَاتِهِ ويصنعون لأنفسهم جوّاً من الانسجام.. ولكني أرى أن أولئك لا يكلفون أنفسهم عناءَ التفكير في الفوارق بين المجتة معات.. وأولئك - من وجهة نظري - سطحيون إلى حدٍّ ما ، فما يَرَوْنَ من حياتهم إلا محاور الارتزاق ومواقع الكسب.. وتلك فئةٌ عريضةٌ في مجتة معاتنا .

أما مَنْ له وَلَعٌ ذاتيٌّ بالـ مقارنة والـ مفارقة كظاهرةٍ بشريةٍ في متناقض البيئات والـ مجتة معات.. وله رؤيةٌ خاصةٌ في وضع المعادلات التقييمية بين بيئةٍ وبيئة.. مع امتلاكه وسائطٍ ثقافيةٍ محددةٍ وإفrazاتٍ نفسيةٍ ، مثل هذا لابد أن يستنفر كلَّ أدواتِ ذاته ليقرأ كلَّ جديدٍ يراه في مجتة معٍ غريبٍ عن مُدْرَكَاتِهِ وعاداته المألوفة.. فكراً وتطبيقاً و ثمرةً .

ربما اعتقد البعضُ بأني أبالغ.. وخصوصاً أن البلاد واحدة.. ولا يفصل بينهما سوى أميال قليلة.. أميال في المستوى الجغرافي أو المستوى التاريخي.. وأيضاً هناك تقاربُ التقاليدِ والعاداتِ وأسلوبِ الحياة..

هذا صحيح.. ولكنها في عين المتأملِ وال متعمق تُظهرِ المفارقاتِ بحجمٍ أكبرِ مما يُدرِكهُ السطحيون.. إن الناس هنا يفكرون بعقليةِ المالِ والتجارةِ والجشعِ وال مغامرةِ في سبيلها.. وهناك يفكرون بعقليةِ قلقَةٍ في ميدانِ التجارةِ ومدرَكَاتِ مَشُوبَةٍ بالخوفِ والحذرِ والترقُّبِ.. إنهم هنا في ميدانِ الجشعِ ينطلقون في مغامراتهم دون قيودٍ أو قوانينٍ مؤثِّرة.. وهناك يتحرَّكون ببطءٍ وعلى قيودٍ وقوانينٍ تحدِّدُ كلَّ شيءٍ في الحياة.. هنا مفارقاتٌ اجتهِماعيةٌ وأخلاقيةٌ.. فالمرأة مثلاً لا تجدُ أثراً لِمظهرها السافرِ الجريءِ هنا.. أما هناك فلا يكاد موقعُ قَدَمٍ من المدينةِ إلا وفتاةٌ على ظهره تَتَنَزَّى وتتحدى.. وهذا يعني أن هناك فوارقَ جمةً في النظرِ إلى المرأةِ والاقتصاد.. هناك تجد تطبيقاً حرفياً لِلوائحِ والقوانين.. وهنا تجد ألواناً من الفوضىِ وال مخالفاتِ القانونيةِ المتعمدة.. هناك لا يجرؤُ موظفٌ أو مديرٌ أن يسألَ امرأةً رشوةً أو هديةً.. وهناك تسعى إليك القضايا بمقدار ما تُبذل.. وهذه مقارناتٌ ضئيلةٌ من حجةٍ مع يَعْجُ بالغرائب.



«السهل» الرفيق.. طول الطريق..

تتراقص أمامي اختياراتٌ متعددةٌ منذ وصولي لِمدينةِ الحُديدة.. فالحديدية ليست مقصدي.. ولكنها أولُ محطةٍ انتظارٍ مأمون.. إذن فمن هنا لابد أن أختار الوسائل للاسـتـمرار .

● إما السفر بالطائرة بعد الحصول على الجواز .

● أو الانتظار للفكرة التي سيبعتها لنا الوالد من الحجاز.

● أو استمرار المغامرة عبر الصحراء إلى الحدود السعودية .

وكانت هذه الاختيارات تُدَوِّرُ بِحُلْدِي.. يترجَّح بعضها على بعض.. حتى قيل لي: إن الاختيار الأول يبدو سهلاً وممكناً في الاستمرار إلى النهاية.. واستعنتُ بآبن عمي ليبدأ في مساعدتي لإخراج الجواز من الحديد.. ولم يكد العمل في الاختيار يسير أياماً قليلة حتى بدا الفشل واضحاً كلَّ الوضوح.. رَغِمَ المحاولاتِ المضحكة المبكية في سبيل إنجاح الفكرة وإخراج الجواز.. ومَرَّتْ ثلاثةَ عَشَرَ يوماً دون حلٍّ ذي بالٍ أو فائدة.. ودون جوابٍ من أسرتي.. وكاد القلقُ أن يستبدَّ بالذات من جديد.. وكلَّ ما عُدْتُ لأُنظرَ في حصيلة الأيام الماضية أجدُ أمامي كوماً من الوريقات ولا شيء غير ذلك .

ماذا حَقَّقْتُ من أحلامي في الحديد؟ لقد شرعتُ منذ وصولي إلى هذه المدينة في كتابة رحلتي كشاهدٍ حقيقيٍّ على لواعج الذات وإحساسها بالحرية.. وكتبتُ دراسةً شعريةً على ديوانٍ شعريٍّ للإمام العلويِّ شيخ الشيوخ بحضرموت السيد عبد الله بن علوي الحداد^(١).. وكان ذلك في فراغ الأيام والليالي خير أنيسٍ وجليس.. ولم أكد أطوي وريقات الدراسة المتواضعة وأفرغ من وقائع الرحلة المفاجئة حتى جاء الأملُ بأخباره.. سرَّى عني بعضُهم بمجرد استلامي للبرقية الأولى.. وارتفعت معنويتي باستلام البرقية الثانية.. وهكذا بدأ التفاؤل يغزو إحساسي ثلاثة أيام .

(١) ولازالت مسودة لسم تته بعد ، وممن أثرى هذا الباب العلامة السيد حسين بن محمد

الهدار في مؤلفه الحفيل « رحلة في ديوان الإمام الحداد » ، تناول فيها بدء جوانب حياة

الإمام الحداد وشخصيته وترجمته ، ثم عرج على قصائده مرتباً تناوله إياها على المواضيع

والأبواب الأدبية والعلمية والسلوكية ، وهو مطبوع .

رَنَ جرس الهاتف في حجرتنا ليحمل خبر الدليل القادم من أرض الحجاز.. كان الرفيق ((السَّهْل)) كعادته يحمل في جيبه بطاقته الخاصة لينقذ من تخلف عن الركب أو عجزت به الأسباب..

وصل إلى تعز.. وسيكون غداً في الحديدية.. وانطوى التبرُّم والقلق ليصبح عجينةً من صَلصال في يدِ فتانٍ متفائلٍ يُشكِّلُ بيديه صلصاله من حالٍ إلى حالٍ.. كلُّ الأشكال لا تُوضَحُ حجماً معيناً.. وإنما هو تحرُّيدٌ لشيءٍ مقصودٍ لِمَ تتحدَّدُ سمائُه الواضحة.. وكان لابد من الإعداد والاستعداد.. وأشرقَت شمسٌ جديدةٌ في سماء الحديدية تراها عيني شمساً باهتةً لا مثيل لها.. بل بدا لي أنها ترسم على الأرض خطوطاً من التفاؤل لِمَا رأيت الضيفَ القادم قد أطلَّ على غرفة المكتبِ بالِ مصنع الصغير .
وضَحِكَ مِلءَ فيه.. وبين النكتة والسخرية والضَّحِكِ المبحوحِ ودَعَتُ أبناءَ عَمِّي وودعتُ الحديديةَ بما فيها.. وركبتُ العربةَ حاملاً أنصَعَ الذكريات..

هذا هو رفيقي الجديد.. إنه لاشكَّ رفيقٌ يُعتَمدُ عليه في الرخاء وفي الشدة.. فقد امتلكت خبرةً طويلةً ومِرَاساً لا يُجَارَى في أمرٍ كهذا.. أليس هو الذي شقَّ طريقه إلى شمال الوطن عبر باب المندب سيراً على الأقدام؟ أليس هو الذي أودَعَ السجنَ مرَّتين؟ مرةً في جنوب الوطن والأخرى في شماله؟ كانت الأولى لطمسِ هُويَّتهِ والثانية لإثباتها.. سُجِنَ في جنوب الوطن بإشارةٍ من مُرَكَّبَاتِ حَقْدٍ دَفِينٍ.. وسُجِنَ في رحلته بإشارةٍ من فاعلٍ خيرٍ.. واختارَ لنا ((السَّهْلُ)) طريقاً صعبةً الانطلاق .

كنا خلال رحلتنا من الحديدية إلى تعزٍّ نَسْتَعْرِضُ كلَّ شيءٍ.. الأخبار عن الوطن والأهل والرحلة المفاجئة وردود الفعل لدى الأهل ، وحديثاً عن رحلاته ومعاناته ، وعن المستقبل والحياة في كَنَفِ الأهل والإخوان.. لِمَ نكد نصمتُ عن موضوعٍ حتى يتفجَّرَ لنا غيرُه.. نقضي بذلك وقتاً لطيفاً يطوي رَتَابَةَ المسافةِ التي امتدَّتْ أكثرَ من أربع ساعات.. كنا نسترسل في الحوار حتى نكادُ ننسى أننا مع غيرنا ركابٌ في

السيارة.. وقد نصمتُ حتى كأن لـ سم يكن هناك حديثٌ نتحدث به.. كنت أشعر أحياناً بفضول بعض الركاب عندما يُنصتون لأحاديثنا وكأنهم استغربوا هذا الانسجام الغريب.. قال أحدهم :

- لا شيء في الطريق مثل الصديق.. يُسلِّيك ويبعد عنك هموم المسافة

وكان رأيه صحيحاً وسليماً.. فأنا أذكر أنني شعرتُ بالعُثيان من الصمت المطبق خلال الأربع الساعات من تعز إلى الحديدة عندما دخلت إليها قبل نصف شهر تقريباً..

ويعتدلُ الجوُّ كلما اقتربنا من مدينة تعز.. ويتحول الاعتدال إلى برودةٍ وغيوم.. ثم إلى رذاذٍ من المطر.. لـ سم يستمرُّ على حالٍ واحدٍ.. إذ تحوَّل إلى قِربٍ من الماء مصحوبةً بزجرةِ الرعدِ وميضِ البرق.. لـ سمجرد أن يل مع البرق ننتظرُ قصف الرعد.. وبينهما وقتٌ قصيرٌ لا يجاوز الثواني .

كنا نتأمل الطريق العامر على مدخل مدينة تعز الجميلة..

الشلالات المائية تنحدر من جبال تعز الخضراء.. إنه جمالٌ وجلالٌ يمتزج على صفحة الطبيعة المحيطة فيسلبُ من الرائي قدرته على التعبير..

نوافذ السيارة مغلقة.. والـ سمطر ينهمر على جوانبها ويتكثف الماء من الداخل على الزجاج من شدة البرودة.. وتـ سمر على الوجه لَفْحَةٌ نسيمٍ باردةٍ يحملها الجوُّ النديُّ الرطب..

ومررنا على نقطة تفتيشٍ عسكريةٍ وبمجرد وقوفنا دَوَّتِ الصاعقةُ على مَقْرَبَةٍ مِنَّا دويّاً هائلاً ومزعجاً.. فاخترط الجنديُّ مسدسه ظاناً أن هناك رصاصاً قد انهمر عليه.. اختلطت ابتساماتنا بشيءٍ من الخوف والترقب.. وتحوَّل الأمر بعد أن جُزنا النقطة العسكرية إلى ضحكٍ وقهقهةٍ مثيرة.. كلُّ الركاب يضحكون.. ومن هذه المفارقات تظهر عظمة الخالق وقوّته.. وضعفُ المخلوق وحيرته .

ها نحن على مشارف مدينة تعز.. العروس الجميلة التي عشقتها الأقدار فمنحتها كل أسباب الرضا والجمال.. هذا هو جبل صبر.. مارڈ جبارٌ يلبسُ حُلَّةً خضراءَ مطعمةً بالفصوص البيضاء والصفراء.. نعم إنه جبلٌ يزخر بمعطيات الحياة وأسبابها.. أكسبته الأيام من الخضرة أبهى الألوان.. ونحتَ على سفوحه وقمته الإنسان الآثار وال عمران.. كم تَعْنَى شعراؤنا ونسجت قرائحهم حوله أبدع القصائد وأروع الأناشيد، وكذلك الأدباء والمفكرون والمؤرخون والعشاق والهائمون في سُبُحات الجمال والجلال.. ما أعظم الامتداد الذي يشغله هذا الجبل الزاهي على مساحة الأرض الخضراء .

هذه هي مدينة تعز مرة أخرى.. الحركة الدائبة صفةً من صفات هذه الأرض الطيبة.. فالناس دائماً تراهم في أرجائها يتحركون.. وفي حركتهم هذه يترجمون معنى الحياة المبدعة في أجلى صورها.. السيارات هنا من كل نوع وحجم ت حملأ شوارع تعز.. حتى لكأن التُّخمة تكاد تختنق المدينة الزاهية.. وهناك الدراجات النارية تتخلل المسافات بين السيارات.. أصواتٌ تختلط من كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ.. من الآلة ومن الإنسان ومن الحيوان.. يعتقد الرائي لأول وهلة أن كل الناس هنا ولا يوجد على الأرض غيرهم بهذا الاكتظاظ.. إنه شعبٌ غنيٌ بالعطاء البشري والروحي والحمادي.. ولكل عطاء رجالٌ وأمة.. مساجدهم ت ممتلئ بال مصليين في كافة أوقات الصلوات.. هناك مساجدٌ كثيرةٌ ب نيتٍ في تعز على الطراز الحديث.. مفروشة بأفخم الفرش الحديثة.. لَيْتَهُم إلى جانب هذا يهت موم بنظافة حمّامات مساجدهم.. هذا هو عيبهم الكبير والذي ل م أجذ له مبرراً معقولاً ولا منقولاً.. ولا عذر لهم في ذلك .

لقد قضينا في هذه المدينة أربعاً وعشرين ساعة تقريباً ضيوفاً على جماعة من أصدقاء دليلنا المصاحب.. كان قد رتّب معهم موضوع السفر إلى « نجران » .. وقد ل م مست

فيهم كرم الضيافة وأصالة العنصر وصدق المحبة وشهامة الأخلاق.. كانت هناك بعض الاجراءات اللازمة للسفر لابد من تديرها خلال مقامنا.. ولا سم تشرق شمس اليوم التالي إلا ونحن على كامل الاستعداد.. ركبنا السيارة « التويوتا الصالون » كما يطلق عليها وكان الوقت عصراً.. ودارت عجلاتها على طريق رحلةٍ قَدَرٍ جديدةٍ نحو الدائرة الخضراء .



نحو الدائرة الخضراء..

الطريقُ من تعز إلى صنعاء معبدةٌ.. ولكنها طويلةٌ جداً.. ولولا تلك الحداثق وال مروج الخضراء وال مدرجات المشحونة بالخضروات وأشجار الفاكهة والخمائل الظليلة لكانت رحلةً أشبه برحلة الموت البطيء.. كنا نرتفع حتى أعالي القمم فنشاهد المدن والقرى من تحتنا كأنها الدُمى.. والأودية كأنها خيوطُ الصُوفِ المفتولِ بلونٍ أخضرٍ جذّابٍ.. بينما تَكْتَنِفُنَا السُّحُبُ وتغمرنا البرودة الشديدة حتى كأننا في غرفةٍ عاليةٍ التكييف.. نتحاشى أحياناً أن نرسل البصر إلى الأسفل.. إذ كان الفرد يشعرُ بالدُّوارِ كلِّ ما أَطْلَّ من نافذة السيارة ليشاهد المنحدرات والأودية في تلك الجبال الشاهقة.. يسقط الفؤاد ويسرع بالقلق إلى السطح فلا تسمع إلا هَمَهِمَاتٍ وَتَحَنُّنَاتٍ وصوتاً جنائزياً من ماكينة السيارة التي تَتَنُّ من ثِقَلِ الحركة على هذا المحيط الصخريِّ الجامد .

كنا أكثر من ثمانية أفراد.. بيننا امرأتان مسافرتان إلى الحج.. إحداها ثرثرةٌ أكثر مما ينبغي أن تكونَ عليه امرأةٌ.. والأخرى عجوزٌ.. أَكَلِ الدَّهْرُ عليها وشَرِبَ.. ولكنها تتحدى الزمن والشباب.. تُغْنِي بملءِ صوتها.. وتُحْمَلِقُ بعينها.. فرحةً بنفسها أو بحياتها

أكثرَ من فرحي بحياتي وبنفسي !! مسافةُ السنِّ العُمريِّ بيننا متباعدةٌ جداً.. ولكنها أصغرُ مني سنّاً وبالِ حملِ موس.. إنها عجوزٌ مرحةٌ وخفيفةُ الظل.. أخذتُ قسطاً من اهتِماماتي خلال الرحلة.. إذ كنتُ أتساءلُ مع نفسي عن مثل هذه التصرفات ودوافعها؟؟ بإمكانِ فنانٍ مُبدِعٍ أن يتخذَ منها مادةً حيّةً لتصوير حقيقة الحياة التي نأُسُّ إليها عبر مراحل تطورنا العمري والعقلي.. إنها لا تملك حتى سنّاً واحدة.. تجاعيدُ وجهها ويديها أضحتْ بارزةً تتحدثُ عن عمرها بأوضح بيان.. سَلَبها الزمن الطويل قدرةَ الإبصار وقوةَ التفكير.. تصمتُ طويلاً حتى يقول بعض الركاب : إنها قد ماتت.. وتتحدث وتضحك وكأنها بنت العشرين.. تغني أغنيات الحب والغرام وكأنما هي تعيشُ مغامرةً عاطفيةً عنيفةً.. تحفظ من الأشعار الغرامية رصيذاً كبيراً.. وبين الفينة والفينة قد يُثيرها أحدُ الركاب بكلمة أو سؤالٍ فتُرسل الأشعار من فمها القاحل ثم تُتبعُهُ بأهه حراءَ كأنها تستعيد أحلى الذكريات .

لقد كانت سبباً هاماً في حيوية ونشاط أفراد الرحلة.. هذه العجوز الشمطاء فرحةٌ بالدنيا وهي على أبواب القبر.. وأنا في مقتبل العمر أكره الدنيا وما عليها.. يركبني الهُم والقلقُ أكثرَ مما يُدخلني السرور.. أترى أن جهلها بمصير الإنسان عاملٌ هامٌ في برود أحساسيسها وارتياح ضميرها؟؟ أم هي امرأةٌ امتلكت أسباب التحدي والصبر حتى لعناصر الفناء فجعلها تبتسم للحياة رغم قسوتها؟؟ هل هي تُدركُ مصيرها القريب فانطلقت تنهش في جدار عمرها الباقي لِتُريحَ وترتاح؟؟ أم هي تخفي حسرةً وانحزاماً وتبرُّماً معجوناً في قوالب من المرح المصنَّع؟؟

أراها تصرخ بالسائق لِيسرعَ في الانطلاق حتى ليكاد بسببها أن يَقصمَ عظامنا.. تأكل القات.. وتدخن السيجار.. وتطلب من الأكل شيئاً كثيراً كلما وقفنا للراحة بعض الوقت.. أنا لا أستطيع أن أُضيفَ على وجبة الغداء وجبة العشاء في حينها فضلاً عن الأكل بين الفينة والأخرى.. وتلك تلتهم الأكل في شهيةٍ عجيبة ! شيءٌ غريب!!

ولعل الأغرَب من ذلك رفيقتها الأخرى.. امرأةٌ جاوزت الأربعين كما يبدو من ملامح وجهها المكشوف.. ثرثرة.. سَلِيطَةُ اللسان.. لا تَنفَكُ من إرسالِ سِلِلِ الشتائم واللعناتِ كلِّ ما سمعتِ العجوزَ تطلبُ منها شيئاً.. تنهالُ عليها بعباراتِ السخرية والاستهزاء والقذفِ بشتى أشكاله وألوانه.. حتى كنت أشعرُ بالتَّقزُّزِ من فظاعةِ عباراتِ لسانها.. جَهْوَريَّةِ الصوت.. لا تستطيعُ التحدُّثَ بهدوءٍ حتى عندما تتحدث مع الركاب.. صوئها يُخْرِسُ كلَّ الأصوات.. ومع ذلك فهما رفيقتانِ إلى حجٍّ بيتِ الله الحرام !!!

لستُ أدري أيُّ حجٍّ ستَنعمانِ به على مِثْلِ هذه الصورة ؟! ولستُ أدري أيُّ حياةٍ ستَعيشانِها بهذا التنافرِ البَشعِ ؟! هذه الثرثرةُ الصغرى منذ أن خرجنا من مدينة تعز وهي تَمضغُ القاتَ وتدخنُ السيجارةَ تَلَوُ السيجارة.. ثم تنفثُ دوائرَ كبيرةٍ وصغيرةٍ وفي كلِّ الاتجاهاتِ ! كانتُ تجلسُ خلفي فتخنقني برائحة الدخان .

هَمَمْتُ أَنْ أَطْلُبَ منها إبعادَ نفثها ؛ ولكني خشيتُ على نفسي.. فلربما فتحتُ على نفسي باباً لن يُغلقَ إلى يومِ البعث والنشور.. وخيرٌ لي أن أصبرَ على دخانِ السيجارة.. ولا أن أسمعَ سَلَاطَةَ لسانها البتار .

هناك راكبٌ آخرُ دائمُ المرح والضحك.. يُشكِّلُ الدَّعامةَ الثالثةَ معهما.. يوزِّعُ نفسه بين العجوز ورفيقتها وبين الركاب والسائق.. ولا يكاد السائق أن يسكتَ قليلاً حتى يفتحَ له باباً من القَوْلِ مع العجوز أو مع رفيقتها أو مع أحد الركاب.. أو يروي قصةً أو يَسْرُدُ خبراً أو يقلِّدَ حيواناً من الحيوانات !

لقد حوَّلَ هؤلاء الرُّفْقَةُ سيارتنا إلى نادٍ مَرِحٍ ! ولولا تلك المراكز العسكرية التي كانت تَمحو كلَّ مَرَحٍ وفَرَحٍ لكننا حَقّاً سَعْداءُ بمعنى الكلمة المعبرَّة.. لقد كنتُ أنا ورفيقي « السَّهْل » في هذا الزَّحامِ المرح نستعرضُ حياتنا.. أخبرنا.. أحوالنا.. آمالنا.. ونتقصي الأسبابَ والمسبباتِ والدوافعَ والنتائجَ وأحوالِ الوطن

وأخبار الأهل والأصدقاء.. وقد يقطع استرسالنا حواراً نشترك فيه مع المجموعة أو نضحك معهم لطرفة ناجحة.. أو تُصَرَّفُ مُضْحِكٍ من العجوز.. وفي حالاتٍ أخرى كنا ننسى كلَّ شيءٍ لنقرأ آياتِ الله تعالى للحفظ والسلامة ونتمنى أن تنتهي رحلتنا على خيرٍ ما يُرام.. إننا لسنا كالرفاق القابعين على السيارة.. وإنما نحن نسير معهم على كَفِّ القَدَرِ.

الطريقُ من تعزٍ إلى صنعاء ممتلئةٌ بعدد من النقاط المخصصة للتفتيش.. ومن مَهَمَّاتِهِمُ البحثُ عَمَّنْ يُغادر الوطنَ دونَ تصريحٍ أو مَنْ يكون تحت السن القانونية للحج.. الأيامُ أيامٌ إعدادٍ لـ موسم الحج.. وهناك كثيرٌ من الشباب يسافرون بجوازاتٍ حجٍّ مزوَّرةٍ أو يغادرون بطرقٍ ملتويةٍ قبل بلوغ السن القانونية للحج.. لقد أصبحت المفاهيمُ الدينية في عصرنا أَقْلَ تقنياً للسلوك والآداب.. وذلك لانعدامها في الخاصة والعامة إلا مَنْ رَحِمَ الله .

ولذلك لابد من مجازاة الفوارق العصرية في اتخاذ هذه القوانين المحددة تقسيمَ البشر بعد أن قَسَمَتْ لهم مبادئهم وأفكارهم ومنطلقات طموحهم وآمالهم ، والحدود تُمَثِّلُ الهيكل الرسمي في كل مجتمة ، واختراقها دون إذن الهياكل ومُمَثِّلِها يُعَدُّ خَرْقاً للقوانين إن لَمْ يُعَدَّ في أعلى درجاتِ المؤاخَذَةِ خيانةً عظمى.. والخيانةُ في المفهوم المعاصر لها معانٍ عديدةٌ ووجوهٌ متنوعةٌ.. وقد يَقِفُ فرْدٌ مثلي ليس له من الأمر غيرَ أن يكتب لذاته فيقول : أين هي الخيانةُ العظمى حقاً ؟ أهي لِفَرْدٍ لا يملك حتى ما يملأ بطنه ؟ أم هي من الوظائف الرسمية للهياكل المتداعية على التقسيمات الوهمية ؟ يا لِّلْعَجَبِ العُجَابِ !

كان معي في جيبِي تصريحٌ بالسفر إلى الحجاز.. ولكنه تصريحٌ من نوعٍ خاصٍّ يتلاءم مع حقائق السلوك المتبع ضمن الدوائر الهيكلية.. قيل لي : إنه تصريحٌ يحتاج إلى شيءٍ من ضبط النفس والأعصاب.. كما يحتاج إلى الاحتفاظ بمخزونٍ كافٍ من

المعلومات الهامة التي تجرعتها من لسان زميلي لأصبها مرتبةً على كل من يسألني عن هويتي في مواقع التفتيش القادمة.. إذن - والحال كذلك - فلا بد من مراجعة المعلومات عبر خطوط الذاكرة بين الحين والآخر.. فلربما سقطت منها عبارة أو جملة تكون سبباً في إعادة النظر عموماً لشخصيتي أمام ممثلي المخارج وال مدخل اللفظية والحركية .

حلّ الظلام ونحن لازلنا على مرتفعات الطريق المؤدي إلى العاصمة صنعاء.. لازال أمامنا من الوقت الكثير حتى نبلعها.. ولكن الليل قد أسدل خيوطه على جمال الموجودات.. فلـ سم نعد نشاهد المناظر الخلابة.. لقد تـ متعنا قبل حلول الظلام برؤية مدن وقرى كثيرة كالقاعدة والريدة وكتاف وإب وذمار وقرى أخرى تـ تمتد على السفوح والمرتفعات الخضراء.. مع غروب الشمس كان المنظر بديعاً وخباباً.. أما الآن فلـ سم يعد لنا غير التـ متع برؤية المصاييح الكهربائية الممتدة على أفق البصر في المدن والقرى.. أو أن نضع أيدينا على وجوهنا نتقي أشعة السيارات القادمة بين تعليقات الركاب وثرثرة النساء .



لا بد من صنعاء وإن طال السفر..

خفّضَ السائقُ سرعةَ السيارة.. فقد أصبحنا نشاهد أضواء مدينة صنعاء.. مدينة التاريخ المجيد والحضارة الزاهية.. هاهي نقطة التفتيش الأخيرة قبل الدخول إلى المدينة.. حدّقَ الجنديُّ في السيارة.. وتفحص الشارة المعلقة على لوحة التعريف بمقدمة السيارة.. ثم أشار إلى السائق أن يخرج بسيارته إلى جانب الطريق للتفتيش.. لـ سم يتحرك السائق من مكانه حتى جاء ضابطٌ آخرُ يلبس ملابس مدنية.. أطلّ على

الركاب وسأل عن هويتهم.. فعرض عليه السائق البطاقات التي كان قد أخذها من جميع الركاب.. لـ سم يقتنع الضابط بالـ محادثة التي جرت بينه وبين السائق فأمره أن يخرج بسيارته على جانب الطريق بينما ذهب هو إلى مكتبه في خيمة عسكرية قريبة بعض الوقت ثم عاد .

أخذ القلقُ يتسرب إلى الجميع لـ ما حصل.. فالسائق مع كثرة انفعاله قال : إن هذا التصرف لـ سم يسبق له مثيل معه.. وقد تكرر مروره بذات السيارة هنا.. أخذ الضابط يسأل السائق عن هوية السيارة والرقم العسكري الذي تحمله.. بينما كنت ورفيقي «السهل» نستحضر ما نحفظه من الآيات والأوراد.. وكانت دقائق عصيبة إلى أن قال الضابط للسائق :

- سنذهب معاً إلى [الداخلية] .

- إلى الداخلية ؟!

هبطت درجة الحرارة.. وبدأ الارتباك والخيرة يغزو الجميع.. كان الضابط رابط الجأش.. قوي الشكيمة.. وله رتبة ذات اعتبار.. فلـ سم يفعل السائق شيئاً أكثر من الموافقة على الذهاب إلى الداخلية.. انطلقت سيارتنا تقفو أثر سيارة مدنية حمراء تحمل رقماً مدنياً ويسوقها ضابطٌ يلبس لباساً مدنياً عبر الطريق الرئيس نحو مدينة صنعاء.. لقد كانت لي رغبة جامحة في التعرف على بعض معالـ سم هذه المدينة الشامخة في صفحة التاريخ.. ولكن الرغبة اضمحلت وتلاشت.. ضاقت الرؤية وتشججت الأعصاب وذهب التفكير كل مذهب.. وحدقت الأبصار والبصائر إلى حيث انطلقت سيارة المخابرات أماننا.. فلعله نهاية المطاف.. من يدري ؟! ربما كان هذا قدرنا.. ويتشعب التفكير ثم يتجمع من كل طريق حتى يكاد أن يُفجّر الإحساس.. لا قيمة لـ ما في المحيط من جلال وجمال إذا انعدم الأمن في قلب الإنسان.. كل المتعة في الأمن والأمان.

دخلت السيارة شوارع صنعاء.. كل شيء يبدو مظلماً رغم وهج الإضاءة.. وأرى كل ما حولي مشوهاً رغم أن المدينة لا زالت عليها آثار الاحتفال بأعياد سبتة مبر.. لم أعد في حاجة إلى النظر في أفراح الآخرين.. أصبح الخوف في جوفي أعظم من كل أمن يمتلكه المحتفلون بأعيادهم.. وقفت السيارة الحمراء بجوار مبنى فخم وكبير.. ونزل الضابط يشير على سيارتنا بالتوقف في زاوية محددة.. نزل السائق وذهبا معا إلى داخل المبنى.. بدأ الجميع يتهايمسون :

- يا لل مصيبة.. ما هذا النحس!.. لم يسبق لنا أن حصل مثل هذا الإجراء.. إنها إهانة لنا.. سيارتنا اعتادت أن تمر دون تفتيش.. لاشك أن هذا الضابط جديد في منصبه .

كنتُ خلال هذا الحوار المتناقض استحضّر المعلومات من جديد.. فلربما احتجّت لها هذه المرة.. فالأمر يبدو خطيراً.. ويترسب في قاع ذهني إحساسٌ بفشل هذه الحُرُم القولية التي حفظتها عن ظهر قلبٍ جُملاً اعتراضيةً لا يألُفها عقلي ولا طبعي ولا تركيبي الداخلي.. ولكنها كما يقولون « شرٌّ لا بد منه » .

ومع ذلك فالحقيقة التي تكتسح الجنور الوهمية دائماً في مثل هذه الظروف { لله الأمر من قبل ومن بعد }.. وبين التوجس والاستسلام للقضاء كان صوت المرأة الثرارة يزيد عوامل القلق والتوتر في الركاب.. فهي تصرخ على الضابط بالشتائم واللعنات.. والخشية كلُ الخشية لو وصلَ الهذيان إلى مسمعه فماذا يكون من الأمر؟ وخرج السائق من المبنى فجأة بعد فترة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة.. وصمت الجميع صمتاً مفاجئاً حتى كأن لم يعد أحدٌ في السيارة غير السُّكُون.. دق قلبي دقةً كبرى أحسستُ بها في كل أوصالي.. وكأنني سأستلسم فؤادي بيدي.. وتطلعتُ إلى الباب.. صافح الضابط السائق في أسلوب رقيقٍ وابتسامة هادئة، ودَّعه بوضع كل مات رقيقة .

كل ما أوشكنا على الاقتراب من نقطة تفتيش.. ويفتح السائق الأضواء كاملة في داخل السيارة ويتحدث مع الجندي المناوب بلطف.. ويعرض عليه البطاقات ثم يستأنف الرحلة ويطفئ الأنوار الداخلية.. وهكذا جاوزنا النقاط الخمس دون استفزاز ولا أذى.. ولكن التوجس والحذر كان كافياً لإسكاتنا طيلة هذه المدة.. ولم نشعر بالاطمئنان والفرح إلا بعد أن قال لنا السائق :

- هذه مدينة صَعْدَة .

تغير كل شيء.. وبدأت الحياة الآمنة تدب في الركب من جديد.. وظهرت أصوات الركاب من جوانب السيارة يتحدثون عن صنعاء ونحسها وعما حصل فيها من مواقف.. وأخذ السائق يشرح موقفه في وزارة الداخلية والتقاءه بالوزير ثم كيف سمح له باستئناف الرحلة دونما استفسار.. حقاً لقد كان موقفاً مشرفاً رغم ما حصل.

هذه هي صَعْدَة.. مدينة أثرية تقع في مُنْبَسَطٍ من الأرض.. هكذا بدت لنا في ذلك الوقت المتأخر من الليل.. ولكننا لم نتعرف على كل مظاهرها في الظلام.. لقد شغلتنا أصوات الباعة في المقاهي ينادوننا بصوت واحد.. كل مقهى عمّاله ينادون أمام الأبواب.. إنه شيء مضحك ومثير للعجب.. ولكن صاحبنا شق طريقه وسط الهتافات الأنانية العكسية وكأنه يعرف أين تقف سيارته.. وقفت السيارة أمام مبنى صغير كتب عليه بخط رديء « الفندق الكبير » .. قاعة كبيرة امتلأت بالكراسي والطاولات.. جلس كل جماعة منا في ركن من أركانها.. وتناولنا عشاءً بسيطاً ثم صعدنا إلى الفندق كما يسمونه.. حشد من السرير الحديدية عليها فرش من الإسفنج وبطانيات ملونة.. اختار كل واحد منا مكانه في الحشد المتراحي.. ونام الجميع حتى الصباح .



في الطريق إلى «البقع»..

- هذه هي نهاية الطريق المعبدة..
- لأبد من السير على طريق رملي ووعر المسالك حتى نعبر الحدود
السعودية..

هكذا قال لنا السائق وهو يودع تلك المدينة التي دخلناها في الظلام وأهلنا نائمون..
وخرجنا منها قبل استيقاظهم إلا الأعداد القليلة من البدو والباعة.. مدينة صعدة عليها
آثار الماضي بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. وحتى آثار الحضارة الممتثلة
بالبنين والوسائل المتنوعة للنقل.. وحركة التجارة مأسورة كل الأسر في أسوار
الماضي وجدران الموروثات.. ممتثلة في المواطن والأبنية وتصميماتها والأسلوب
المتبع في يوميات الحياة العامة والخاصة وفي اللباس ومظاهر العلاقات.. هذا ما بدا لي
خلال إشرقة الصباح والركب يحتشد في السيارة على الطريق المؤدي إلى الحدود
السعودية.. عادت بي الذاكرة إلى قريتي الهادئة «أحور».. لقد كنا نعاني من مشققات
مماثلة في الوصول إليها أو الخروج عنها.. كنا نشعر بالإرهاق.. وبمجرد أن نصل إلى
المتزل نخلد إلى الراحة هناك.

ولا شك أن هناك فارقاً كبيراً بين الأمس واليوم.. لقد حقق الإنسان لنفسه إنجازاً
ضخماً بوسائل العلم الحضارية.. ويبدو للمرء قيمة المقارنة بين الأحوال عند
العود إلى نماذج الماضي المنتشرة في مبسوط الأرض البشرية.. ولكل موقع من الأرض
حكمٌ وحالٌ وأسلوب.. فالعواصم تختلف عن غيرها من المدن الأخرى.. والمدن
أيسر حالاً من القرى.. والقرى تنتهي فيها أسباب أكثر تطوراً من حياة البادية.

ولكل موقع من هذه المواقع عشاقٌ وراغبون.. وقد يحصل العكس في الرغبات..
فينطلق المرء من البادية إلى القرية.. ومن القرية إلى المدينة.. ومن المدينة إلى العاصمة..
ومع كل ارتفاعٍ رغبةٌ في طموح أو ارتفاع في مثله.. وينعكس الحال من العاصمة إلى
المدينة إلى القرية إلى البادية بانعكاس الأحوال.

وليست قاعدةً.. هانحن في نموذج من نماذج البدائية.. في مبسوط الصحراء سيارة حديثة ت مخر عباب القاحل المتراكم لتتحدى الماضي وتبرهن على قوة وسائل الحاضر.. ل سم نعد كما كنا البارحة.. لقد عاد المرح إلى رفاق الرحلة أكثر مما كانوا عليه بالأمس.. فمئذ أن امتلأت البطون في فندق صعدة تحركت الألسن ونشطت الأفكار.. وحتى الأسطوانة العجوز دارت دورتها ونطقت مع بزوغ الصباح الباكر.. هاهي تغني بصوت مرتفع.. والسائق يمرح مع صديقه المهرج القابع في آخر السيارة.. والسيارة تت حائل ذات اليمين وذات الشمال فتُقلِّبُ الأفتدة وتُحرِّكُ الأجساد وتُبعثِرُ السكون.. ولعلها طرِبَتْ لصوت العجوز المغنّية.. الانسجام يشمل الجميع.. وتلك ظاهرة نفسية قد تحصل عادةً بسقوط حواجز الكلفة بين الأفراد.. وقد لا يكون في حالنا هذا انجسامٌ بمعناه الكلي ؛ ولكنه يحمل هذا المعنى من حيث الرضا الداخلي لدى المجموعة بتصرفات بعضهم البعض.. ولكلّ بعد ذلك موقفه الخاص من حيث المشاركة وعدمها.

نعم ؛ لقد كان جو الرضا والانسجام القلبي مشتركاً بين الجميع.. وذاك من أهم العوامل التي ساعدتنا على طَيِّ الفارق الزمني على الأرض الترابية الوعرة.. فالساحة تلحق الساعة.. والطريق تنطوي تحت عجلات السيارة الزرقاء.. لقد التقت أبصارنا منذ مغادرتنا ل مدينة صعدة بأرض صحرواية رملية أو مرتفعات جبلية صغيرة تتخللها أودية وسواقٍ تنبتُ إلى جوانبها شجيرات متفرقة.. إنها مفارقات بيّنة حتى على مستوى توزيع البهجة والخضرة.. هناك الخضرة وبرودة الجو والجمال المبدع الخلاب على الطريق الطويل من تعز إلى العاصمة صنعاء مع شيءٍ من الخوف والوجل والترقب.. وهنا الصخور والأرض الترابية المجذبة والأشجار الشوكية والصحراء القاحلة مع شيءٍ من الاطمئنان .

حقاً ما قيل : « إن الحياة مهما كُملتْ سعادتها تظل حلقهً منها مفقودةً ، ومهما اشتدتْ شقاوتها فالنجاة والفرج يقينيات موعودة » .. والإنسان مخلوقٌ يملك القدرة على التكيف حسب الظروف المحيطة لكونه يقهرها بالوسائل.. ولا يوجد مخلوق غيره يملك هذه القدرات في عالم التسخير الأرضي.. صادفنا في طريقنا عددًا من السيارات الكبيرة والصغيرة.. منها ما هو متجه معنا على ذات الطريق ومنها ما هو داخل إلى شمال الوطن يحمل بضائع مختلفة ومسافرين.. وقفنا في طريقنا مرات عديدة طلباً للراحة وكسراً لحاجز الرتابة المألوف في نظام السير ، ولشرب الماء أو لإفراغه.. ونواصل الرحلة مرة أخرى.

مررنا على قرى مختلفة وشاهدنا بعض الملامح الغريبة في اللباس والهندام وهندسة البناء.. وكما توغلنا في عمق الطريق يظهر لنا شجر النخيل وشول جزئي من الخضرة والزرع في شبه واحات متفرقة وعلى جوانب الأودية بهيت في مواقع متفرقة.. بيوت مدورة البنية تشبه القلاع القديمة.. ثم دخلنا قرية صغيرة كانت أكثر بيوتها على هيئة التدوير مبنية من الطين وتزخرف جوانبها بزخارف من ذات الطينة.. بارزة كل البروز على الحيطان والنوافذ.. وبيوت أخرى في قرى متفرقة بهيت من الصفيح اللامع والزنك .

واعترتني الدهشة لما أن رأيتُ عدداً من الناس يتخذونها بيوتاً سكنية دائمة ! لعلهم فقراء لا يملكون غير هذا الصفيح العاكس للحرارة.. أو لعلها طبيعة الأرض تحتهم عليهم ذلك لبرودتها.. أو لربما اختيرت دون غيرها من وسائل السكنى لقوة جدرانها وعدم تأثرها بالمطر.. لكنها صفيح حار وغير مصمم لهذا الغرض.. بإمكانهم استخدام الأخشاب أو الخيم الكبيرة.. ربما يخشون الحرائق وخاصة في جو قبلي كهذا.. لا يأمنون غائلة البدو من قطاع الطرق واللصوص الذين لا يُفرقون بين

الآمن والخائف والغني الفقير؟! وقد تَنَشَّبُ حروبٌ قَبَلِيَّةٌ تأتي على كل شيء.. وهذا ما استنتجته من حوار أحد الركاب ولكن لم يستقر في ذهني بحجة معقولة . وأغرب ما شاهدته في هذا الطريق الريفي المترامي تَجْمَعُ سَكَنٌ لبعض اليهود.. قيل لنا : إنهم من قدماء اليهود المتناسلين على هذه الأرض.. يمتازون عن غيرهم من أهل القرية ومجاوريها بإسْدال شعر أصداعهم إسْدالاً بيناً.. ولكنهم يتحدثون بلهجة يمنية ويلبسون اللباس التقليدي.. ولا يكاد المتأمل تمييزهم عن المواطن اليمني المسلم إلا بما ذكرناه من يسير المبادئ .



من «الوزف» إلى «السرجين»..

- هذه هي «البُقْع»..

كان يحدثني الرفيق «السهل» .. إنه آخر موقعٍ يَمْنِي في الخريطة المعاصرة.. ينتقل المسافر بعده إلى الحدود السعودية.. لابد لنا من التوقف في هذا المجمع المزدهم.. بيوت متناثرة.. كلها بنيت وشيدت من صفائح الزنك وتزدحم حولها السيارات الواقفة والاحتركة من كل حجم ونوع.. وبها من البشر ما لا يُتَصَوَّر وجوده في قرية صغيرة.. إنها منطقة التقاء يتجمع فيها المسافرون من أماكن شتى من اليمن.. من الوادي ومن القرى المجاورة..

وهو مجمعٌ لا توجد فيه صفة رسمية أو هيئة حكومية ذات اعتبار.. وقفتُ بنا السيارة أمام مقهى صغير تملكه امرأة وتوزع وتطبخ وتلبّي طلبات الزبائن ومعها خدم وموظفون.. يظهر لنا أن سائق السيارة يأنس إلى هذا الموقع فاختره لنا موقعاً نأكل فيه .

قُدِّمَ لنا أكلٌ نظيفٌ.. لحمٌ وأرزٌ وتوابلٌ كثيرةٌ.. ثمَّ خلدنا إلى غرفة جانبية لنتراحم.. كان همِّي مشغولاً في هذه الغرفة المعدنية بمداخلة الحرارة الشديدة التي تعكسها جدران المبنى الصغير.. ولذلك لم يرق لي النوم ولم أجِد راحةً في البقاء .

وحان وقت العصر..

قال لي رفيقي : - نحن وإياك سنبقى هنا في البُقْع.. لن نستطيع الدخول إلى نجران اليوم.. إلا بعد تدبير الأمر مع جهات الاختصاص.. ليكون الدخول رسمياً وأكثرَ شرعيةً.

وافقتُ بالطبع على الفكرة.. حيث لا أملكُ خياراً آخر.. بل لا أدري بذاتي كيف بدأتُ ولا كيف أنتهيتُ.. فال موافقة من بديهيّات الحال.. ورتب « السهل » الأمر مع سائق السيارة قبل مغادرتهم هذا الموقع الغريب المريب.. وخرجتُ مع « السهل » من مقهى المرأة إلى حيث يمكن لنا أن نستقر إلى أن يقضيَ الله أمراً كان مفعولاً.. اختار زميلي مقهى آخر لمواطن من جنوب اليمن كان « السهل » قد عرفه في رحلة سابقة.. دلفنا إلى المقهى وأعد لنا جانباً من جوانبه للجلوس.. وبالطبع كان المقهى مدخلاً ومخرجاً للعشرات من الناس.. ويُعرَّجُ بعضهم إلى ناحيتنا يجلسون للحديث والاستفسار.. كان أغلبُ من يجلس معنا قادمين من السعودية يسأل عن أخ له أو قريب رمتهم الأقدار على طريق الخروج من الوطن إلى هذا الموقع الشامل.. التقينا بعدد من المواطنين من جنوب الوطن.. ودار حديثٌ طويلٌ ومؤلمٌ.. و« الطيور على أشكالها تقع » .

تسعة من الشباب طردوا من حدود السعودية بعد أن دخلوا إليها بصورة غير مشروعة.. لا يملكون شيئاً غير الحديث والثياب التي عليهم.. قال أحدهم :
- كل ما لدينا أنفقناه في الوسائل الفاشلة لبلوغنا إلى حدود السعودية .

وكان الحذر من كافة الأطراف يشوب الحديث ويعرقل استمراره.. وجاءت جماعة أخرى عرفنا منهم أنهم قادمون من جنوب الوطن.. تجاوزاً للحدود في طريقهم إلى المملكة.. وكنا نصمتُ إذا تكلّموا ولا تُبدي رأياً قاطعاً.. حيث إنّنا من الداخل غيرُ مطمئنين لكل إنسان..

وكأن البعض من هؤلاء أنسَ إلى حديث صاحبي ومُحيّاه.. فطال بهم الحديث على هيئة حوارٍ متبادلٍ.. فبدا بعد حين أن الجميع حقاً قد خرجوا من دائرة الشك إلى دائرة اليقين.. وأن بإمكانهم وبإمكاننا أن نتحدث كما نريد دون خوف أو حذر . إن الحديث بالطبع هنا لن يكون تناولاً لأحد من الناس أو الأنظمة.. ولكنه حديثٌ عن المغامرات الشخصية على طريق تجاوز القوانين حتى بلوغ المجمع المفتوح.. وحديثٌ مثل هذا يكشف للبعض جوانبَ غامضةً عن هوية المتكلّم.. والاحتمال مع في العادة رجلٌ مجهولُ الهوية والوظيفة ، ومن يدري ؟

إن أغرب شيء في هذا الموقع الصغير هو ارتفاع الأسعار وإلى درجة تكاد أن تكون خيالية.. علبة الماء المعبأ بسبعة ريالات يمنية !! والوجبة العادية بـ ٣٠ ريالاً يمينياً !! هذا شيء لم نعرفه في حساباتنا السالفة حتى في مدينة عدن .

والأغرب من ذلك أن بإمكانك أن تُنقذَ صاحب المطعم أياً من العملات اليمنية أو السعودية.. فال مطعم موقع للطعام وصرف العملات.. واعتقدتُ أن بالإمكان الحصول على بئرٍ يشرب منها أو يغتسل بها.. وبلغ العجب مبلغه عندما عرفتُ أنه لا يوجد في هذه البقعة قطرة ماءٍ غير ما تنقله السيارات عبر الصحراء من قرية بعيدة وبث من باهظ..

إنه موقعٌ تجاريٌّ ناهبٌ له مال بالضرورة.. جُلْتُ في البُقعة مع زميلي قليلاً ثم عدنا إلى حيث وَضَعنا أمتعتنا فال موقع غير مأمون.. وزاد من قلقي ما قصه عليّ زميلي من تجربته الأولى في هذه النقطة الملتهبة حيث أشرف على الموت الزؤام.. مرت

فترة على وجودنا في هذه البقعة مدة تزيد على الأربع والعشرين ساعة استل منا خلالها تصريحاً رسمياً بالدخول إلى نجران.. شرح زميلي بعض التعليمات الضرورية لـ محثلي عند نقاط الحدود لتفادي الملابس وخشية العرقلة.. وشعرت بشيء من الرهبة من كثرة ما وصف لي عن النقطة القادمة والتي تعد الفاصل الزمني والـ مكاني بين اليمن والـ مملكة العربية السعودية.. فأعددت نفسي لامتحانٍ صعبٍ وخطيرٍ.. غادرنا البُقْع مع سيارة تابعة لصاحب المقهى حيث يتعود السفر لجلب بعض متاعه وحاجاته.. وقد استطاع زميلي أن يقنعه بمصاحبتنا له في سيارته ورتب معه الأمر بسهولة ويسر كما هي عادته في مثل هذه المواقف الحرجة.. خلافاً لي.. فأنا لستُ أدري لـ ماذا أواجه صعوبةً بالغةً في التعرف على الآخرين ؟ بل أشعر بعدم الرضا في ذاتي . وقد أضطرُّ إلى أن أحرم نفسي أموراً هامةً نتيجةً لقصور رغبتني في التعرف على الناس !؟

لعله أثرٌ من آثار التربية.. فقد عُزِلنا عن الحياة والناس عُزْلَةً شبه تامةً في مراحل حياتنا الأولى.. وأشعر اللحظة أني لستُ بنادمٍ على شيء.. ففي قراري ارتياحٌ بالغٌ بما أنا عليه وبلَغْتُ بالتربية المنعزلة إليه.. إنني لا أحبُّ أن أكون مَدِيناً لأحد .

قال لي صاحب السيارة :

- يجبُ أن تتركب على سطح السيارة فهي صغيرة ولا يتسع مقعدها الأمامي لأكثر من ثلاثة..

السائق ورفيق له وصاحبي.. وقد كان يرجح أن بقائي على هذه الصورة جزءٌ من نجاح الفكرة.. كان سطح السيارة مكشوفاً ومشحوناً بِسَرَجِينِ الأغنام^(١) التي يجلبها للـ مطعم من نجران ! واخترتُ لنفسي مكاناً على أرض السطح.. وتشبثتُ بأطراف هيكل السيارة خشية الوقوع.. وانطلقتِ السيارةُ في صحراءٍ رمليةٍ بسرعةٍ جنونيةٍ

(١) السَّرَجِين بكسر السين المشددة هو الروث أو السَّمَاد .

تطوي الميل تلو الميل.. بينما كانت الرياح القوية تثير السرجين على سطح السيارة لينتشر على أجزاء جسمي وثيابي.. ما أَشَبَّهَ الليلةَ بالبارحة !! خرجتُ من مدينة عدن على ظهر سيارة مكشوفة تنبعث منها روائح السمك المجفف - وللسمك علاقة بمدينة عدن الساحلية - وهأنذا أدخل الحدود السعودية على ظهر سيارة مكشوفة تنبعث منها روائح الأغنام البدوية ، ولا تخفى علاقة البلاد الحجازية وما جاورها بترية الأغنام والأنعام .

ثيابي تكاد أن تُفَلَّتَ من جسدي لكثرة حركة الريح المندفعة في الاتجاه المعاكس لحركة السيارة.. أُوَزَّعُ يديَّ بين التَّشَبُّثِ بالهيكل خشية السقوط وبين حفظ ثيابي المنتفخة بالهواء.. شرعت أقرأ آيات الحفظ والسلامة.. فالأمرحلة التي أنا قادم عليها تعدُّ النهاية أو البداية .. واستعرضتُ شريط المعلومات الذي سمعته من زميلي حتى أتبين منافذ القوة والضعف فيه.. فهناك كل ماتٍ ومواقع وأرقام ومُدُنٌ وقُرَى وشخصيات لا بد من سردها عند الضرورة .

إنها مسألة هامة ومعقدة كل التعقيد في ذات الوقت ، والأعجبُ كونها مغامرة رغمَ شرعيَّتها القانونية.. أشار إليّ رفيقي من خلف النافذة بالاستعداد.. حيث صرنا قريباً من نقطة التفتيش.. حَفَظَ السائقُ سرعة السيارة حتى حاذى الجنديَّ القائم بجوار خشبة المرور.. وأخرج بطاقات الركاب.. نظر الجندي إليها ملياً ثم أعادها إليهم.. كنت أتأملُ السائق وهو يهمس نفسه « سَتَرَكَ يَا رَبِّ » .. اتجه الجندي إليّ وطلب مني البطاقة.. سلَّمتُها له مع ورقة أخرى تمنح عند الخروج.. حاولتُ أنْ أَبْدُوَ طبيعياً.. ورأيتُه أخذها وتأمَّلَها.. ثم أعادها إلي.. وذهب ليرفع الخشبة عن الطريق..

وانفتحت الحدود.. وانهارت السدود..

شيء غريبٌ للغاية !! لقد قال لي زميلي ومن معه : إن التفتيش هنا دقيق للغاية.. وهناك ضابطٌ مسؤولٌ عن التحقيق.. وفي مجمَّع البُقَع أعدادٌ من الشباب أُعيدوا من

هذه النقطة الحرجة.. لكننا لم نجد من ذلك الأمر شيئاً.. هاهي سيارتنا قد انطلقت إلى داخل الحدود.. رابن مني الأمر من جديد!! فأنا وحدي على سطح السيارة.. ورفاقي لا يسمعون حديثي ولا أسمعهم.. لعل هناك موقعاً آخر نحن في طريقنا إليه.. وهو المعني بالانتباه والحذر .

بدأت الفكرة مجردَ خاطرةٍ عابرةٍ.. لكنها استفحلت واستشرت حتى تملكّت على جوامع ذهني.. وتصاعد الخوف إلى قلبي تصاعداً.. شاهدتُ على جانب الطريق سيارةً ظننتُ أنّي شاهدتها بعينها في البقع.. وشاهدتها محاذيةً لنا خلال خروجنا من البقع على طريق نجران.. وهاهي الآن تقف على جانب الطريق منتظرةً دخولنا.. لاشك أن بها من يتتبع حركتنا.. لعل أحدهم قد فهم من خلال حديثنا بالحقه أننا من جنوب اليمن ولسنا من شماله.. ولعل عينا من العيون شكّ في هويتنا منذ أن جلسنا في مجمع الوباء البشري والحمادي.. البقع .

وكدتُ أنفجر من جوانبي حيث استبدت عليّ الخواطر استبداداً مدمراً.. هذا هو الطريق المعبد.. لقد افتقدنا آثار الإنسان الحضارية على هذا الامتداد منذ أن جاوزنا مدينة صعدة قبل أمس.. لا بد أن أتبه جيداً لهذه السيارة التي تتبعنا.. من يدري؟ وضاق بي الأمر فلم أحمّل.. قرعت الزجاج الفاصل بيني وبين أصحابي وأطلّ «السّهل» برأسه مستفسراً فأخبرته بخبر السيارة التي شككت في أمرها.. لكنه تلقى الخبر ببرودٍ غريبٍ !

وماهي إلا لحظات حتى سمعتُ من خلف الزجاج الفاصل ضحكاً ممتزجاً بسخريةٍ لاذعةٍ وتهكّمٍ بينٍ وواضحٍ.. وناداني أحدهم :
- لا تخش شيئاً.. ما أكثر حركة السيارات هنا.. لا تشغل بالك.. أنت الآن على مقربة من نجران.. فاطمئن .
أمرٌ غريبٌ وعجيبٌ !! ما يقول هؤلاء؟!؟!!

يقولون : « إنا على مقربة من نجران » و« اطمئن » .. إذن فقد جاوزنا الحدود حقاً!

وزال الخطر الموهوم.. وكأنَّ الرُّفْقَةَ أَحْسُوا بما يجول في صدري فأوقفوا السيارة على جانب الطريق ليؤكدوا لي خبر التجاوز المبارك ، والذي قيل عنه : إنه عنايةٌ من الله وحظٌّ حسنٌ.. وكان دخولنا في وقت لا يوجد فيه المحقّق ولا المدقّق.. والحمد لله.. { إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون } .



«الخضراء» ..

- نحن الآن في «الخضراء» .. فلا خوف ولا وجل .

هكذا قال لي زميلي ونحن منتظرون بطاقات دخولنا إلى نجران بعد أن أخذها جندي الخشبة يتفحصها.. سارت بنا السيارة المكشوفة من جديد على الطريق المرصوف.. ولكن الأحاسيس في ذاتي صارت مختلفة كل الاختلاف.. لقد بدأت أدرك أن موقعي من السيارة غير ملائم.. وأنه غير لائق..

ولا يصلح لـ مثلي..

و « لـ ماذا ركبتُ على السرجين » ؟

عندما يجد المرء الأمان يبدأ في إعطاء شخصيته معانيها الوهمية.. ولكنه عند فقدانه لا يجد مكاناً لأبسط الضرورات..

وقفت السيارة في موقعٍ عامٍ لبيع الأعلاف والحشائش.. وكان من حسن الحظ أن سيارةً أخرى كان السهل يعرف صاحبها ويعرف وجهته كانت على وشك الخروج

من ذلك الموقع.. ذهب السهل إلى السائق وأفهمه الأمر فتزل الركاب الثلاثة من السيارة نحوي يُسدّ حمون عليّ ويسألوني عن حالي.. وكنت خجلاً من ثيابي ورائحتي وصورتي ومن ذاتي.. ولكن الحال الواقع يتغلب على كل الأمور الشكلية .

طُلبَ مني أن أركبَ في مقدمة السيارة.. واعتبرته ردّاً اعتباراً وتعويضاً عن التعزير الاختياري على سطح السيارة المكشوفة الأولى.. واكتظّ جوُّ السيارة بالأسئلة المتنوعة والاستفسارات عن الصحة، والأهل، والأخوان، وعن الوطن، والرحلة.. وأنا أتحدّث معهم من خلال فَمٍ وأنفٍ وعينين مُشبعتين بالسّرّجين ! وقلبٍ ينفقُ بين الفرح والخجل.. وابتساماتٍ ذات معنى يُهدّدها إلى رفيقي بين الحين والآخر !



بركة الجمعة..

هذا هو موقع التزل الآن وبصورة مؤقتة ..

قال لي زميلي وهو يشير إلى معسكر صغير أُقيم في جانب من صحراء مكشوفة تهبُّ عليه الرياح من كل اتجاه .

هناك مبنى صغيرٌ دخلنا إلى ساحته المفروشة بحجارة صغيرة.. ثم دخلنا إلى غرفة صغيرة تحتوي على سريرين وأشياء مبعثرة في بعض الجوانب.. والتقيتُ بصديق حميمٍ لسيدي الوالد.. رجلٍ متواضعٍ على مستوى من الإيمان والأخلاق ودماثة السلوك.. كنت قد عرفته في صغري عندما كنتُ أقفُو أثرَ والدي من مكانٍ إلى آخر..

نعم إنه ذلك الرجل المؤمن الواثق بالله.. عليه لوائحُ الهيبة.. وسماتُ التقى.. تحدّث معي ومع صاحبي بلطفٍ بالغٍ وهدوءٍ عجيب.. ولم تتأخّر في غرفته كثيراً.. فقد حان وقت صلاة الجمعة..

يا لِلْعَجَب أيضاً !! خرجتُ من الدائرة الحمراء ليلة الجمعة.. ودخلت شمال الوطن ليلة الجمعة.. وهأنذا أدخلُ حدود الدائرة الخضراء يوم الجمعة ! لاشك أنها رحلة مباركةٌ إن شاء الله..

ذهبنا إلى المسجد وكان أماننا بعض الوقت سمح لنا أن نقرأ شيئاً من القرآن بعد الركوع.. بدأ المصلون يتجمعون في مسجدهم الصغير والذي يحتوي أيضاً على غرفة لتعليم الأطفال.. وخطب الإمام خطبةً لم أسمع أحفظ منها شيئاً لَعَلَّبةِ الثُّعاسِ وثقلِ الراس.. وبعد انقضاء الصلاة دلفنا إلى غرفة أُعِدَّت للطعام.. وكان أولَ طعامٍ رسميٍّ في حدود الدائرة الخضراء.. وخلال تناول الطعام تبادلنا أحاديثَ شتّى.. وكان من أهمها اقتراحُ المضيف أن نختارَ لقباً يمنح لصاحب الفضل في رحلتنا هذه وإنجاحها.. وأنفقَ على تلقيه « بالابنِ البارِّ ».. فهو بذلك يُعَدُّ ابناً بارّاً بحقٍّ لوالده ووالدنا وأب الأجيال سيدي علي بن أبي بكر المشهور.. لقد أدَّى دوراً كبيراً في إنجاح رحلتنا هذه.. كما كان له دورٌ من قبلُ أكثرَ خطورةً ومجازفةً في إنجاح رحلة الأخ أحمد من الحديدة إلى مدينة نجران.. وقد تعرض خلال رحلته التأسيسية الأولى مع الأخ شهاب الدين والأخ مهدي بن محمد بن أبي بكر إلى حادثٍ صدامٍ عنيفٍ في مدينة نجران أقعده الفراش مدةً ليست بالقصيرة.. كما تعرض خلال تلك الفترة ذاتها إلى محنةٍ ماديةٍ ونفسيةٍ في مدينة نجران أغلقت عليه باب الدخول إلى جدة نتيجةً لإهمال بعضٍ من اعتمد عليهم في مساندته لذلك .

وكما اعتاد « السهل » أن يخلق لغيره نصيباً من معاني اسمه الجميل فقد صمَدَ أمان عقباتِ حياته حتى ذللّها الله له وحقق أمنيته بالدخول إلى مدينة جدة ومكة والى مدينة.. وكان جميع الحاضرين على مائدة الغذاء ينصتون لحديثنا عن «السهل» ومغامراته وعن أخبار الرحلة العجيبة.. وما أن فرغنا من طعام الغذاء حتى دخلنا إلى غرفةٍ مُضَيَّفنا لتتناول أنواعاً من الفاكهة كانت بالنسبة لي أولَ مرةٍ أذوقُ فيها عدداً

متصلاً من الفاكهة على مائدة واحدة.. ومع حلول العشية صلينا العصر في جماعة
ثم أقلتنا سيارة مضيفنا الخاصة إلى مدينة نجران .



في ((الصعيد))..

مترل هادئ وجميل يقع في حي سكي هادئ في منطقة ((الصعيد)) بمدينة نجران..
يحيطه سور كبير تنتشر في حديقته شجيرات البرتقال والريحان وأعشاب موزعة على
أحواض رُبَّتْ بعناية.. وأرض ترابية فُرِشَتْ بالقرميد الملون .
- هذه غرفتكم.. بإمكانكم أن تترتاحوا هنا.. المنزل منزلكم.. أهلاً
وسهلاً..

كانت هذه بعض عبارات الترحيب التي قدمها لنا المضيف الكريم المتواضع.. دخلنا
غرفة استقبال واسعة وجميلة ومفروشة بالقطيفة المزركشة ، يحيط بجوانبها مساند
ووسائد كُيِّسَتْ بقطائف ذات ألوان مختلفة.. تنسدل على النوافذ ستائر بيضاء شفافة،
بينما توزعت حولها ستائر أخرى ذات لون هادئ يزينها شريط في الأسفل به
اللون.. أخذنا مواقعنا في أركان الغرفة وتخلينا عن بعض الأثقال والملابس التي
نحملها.

وبدأ الإحساس بالذات يظهر جلياً.. وبرزت معه الحاجة إلى الاهتـمام
بالمظهر.. لقد كنا طول الرحلة لا نفكر بشيء أكثر من سلامة الوصول فلـم
أستـنـكف أكياس السمك المجفف.. ولا جلوسي على أبوال الأغنام وأرواثها.. كما أنا
أستـنـكف الآن من هذه الذكريات..

الآن أستغرب حالي المهمل وثيابي المتسخة.. بل أشعر بالخجل من نفسي وأنا بهذه
الثياب المهملة المتسخة في هذا المترل الأنيق .

اغتسلتُ وغيّرتُ ملابسي.. ووجدت نفسي في حاجةٍ إلى الوقوف أمام المرأة.. وفي أعماق نفسي ابتسامةٌ ساخرةٌ من هذا الإنسان الذي يتقلب في أحواله ومزاجه ورغباته حسب محيط الظروف.. إنه الإنسان.. ما أن يشعُر بالأمان حتى يملأ المكانَ صخباً وهذراً وجدلاً وإثباتاً لكيانه ووجوده ولو على حساب خوف الآخرين.. مع أن الجبنَ والقلق والخوف هو التركيب المقابل لـ مثل هذه الأخلاق الجبارة الظاهرة في سلوكه الطَّبْعِيّ .

كان زميلي « السهل » منذ أن استقرتْ أقدامنا في هذا المتزل وهو يحاول الاتصال بوالدي وبإخواني في جُدَّة عبر الهاتف.. ولكنَّ الخطوطَ مشغولة.. لقد أكَّد لنا حارس المتزل أنه جرى بالأمس اتِّصالٌ هاتفيٌّ من جُدَّة يستفسرون فيه عنَّا.. إذن فهم لا شك على غاية من القلق لتأخر أخبارنا عنهم.. لقد مرَّ أسبوعٌ كاملٌ منذ أن غادر «السهل» مدينة جُدَّة حتى اليوم.. إذن لابد من تكرار الاتصال لتطمينهم بسلامة الوصول.. ولا سمَّ يَسْعَ الأخ عبدَ الله بنَ صالح السهل إلا أن يَتَّصِلَ بأحد الأصدقاء في جدة ليتصل بالوالد ويخبره بسلامة الوصول .

كانت أولُ جولةٍ لنا في هذا الحي الهادئ مع صلاة المغرب.. حيث اتجهنا إلى المسجد القريب للصلاة فيه.. مسجدٌ لطيفٌ ونظيفٌ وحديثٌ عهدٌ ببناء.. وقد رأيتُهُ يختلف تصميمًا عن مساجد الوطن التي اعتدناها.. فموقع الاستنجاء والوضوء منفصل هنا تَمَاماً عن المسجد بحيث يضمن المصلي طهارة المسجد من الأوساخ والقذر وبلل الماء الذي تحمله الأقدام من مواقع الوضوء.. ورأيت رقعة من الأرض عند المدخل فُرشت بالحصباء بحيث يمكن للدخل أن يَفْرُكَ قدميه عليها.. لا سمَّ نصل في هذا المسجد أكثر من ثلاثة فروض.. ثم صَمَّم الجماعةُ بالاحتزل على أن تُقيمَ صلاةً مستقلةً.. كان ذلك أول موضوعٍ أباشرُهُ على الواقع من مسائل الخلاف بين المذاهب وظهوره حيًّا مع غيري.. حاولتُ أن أُبَيِّنَ لهم - وخاصةً بعض المتفهمين منا - أن

أهل العلم لا يلتفتون إلى مسائل الخلاف في فروع المسائل.. ولا بأس من الصلاة خلف المخالف لمذهب.. وكان رأي بعضهم أن الصلاة في المترل لها مبرراتها :

- أولاً : وجود من يطمئنون إليه في الإمامة .

- ثانياً : أنها صلاة مؤقتة بزمان معين ، ويعود الجميع بعد ذلك إلى المسجد .
- ثالثاً : أنهم يرغبون في اجتهاد جامع كل الموظفين ومن حولهم في جماعة تذكّرهم بحضرموت وبصلاة سيدي الوالد .

وأقمنا صلاة الجماعة في المترل منذ ذلك الحين.. وفي اليوم الثاني وبعد صلاة المغرب رنّ جرس الهاتف.. وكان صوت أبي.. وأخذتُ السماعة لأتحدث معه.. فكان أول عبارة قالها:

«الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»..

وكان حديث الأب للابن وحديث الابن لأبيه.. وعدتُ إلى موقعي من الغرفة في استعادة ذهنية لعجائب الماضي القريب.. وتنسحبُ الذاكرة إلى أيام وجودي في «عدن» لا أفكر في غير البحث عن عوامل الاستقرار.. المترل.. الشهادة العليا.. الخدمة في المجال التربوي.. وبصيص من نور الدعوة إلى الله في حدود ضيقة جداً^(١).. لا سم

(١) تأكيداً بأن المراحل ليست متشابهة؛ ولا مقارنة بينها؛ نرى هذا النص في الرواية ينقلنا إلى واقع المعاناة التي عشتها، فانتقالي من الريف إلى عدن كان دافعه تحسين المستوى العلمي بالدراسة وقد كدتُ أن أفقد وظيفتي قبيل ذلك عندما طُوبتُ مع فجر الثورة في أحور بالشهادة التعليمية لأبقى مدرساً أو أُحمى من ديوان المعلمين.

وكانت مرحلة تحدّ سافر، وقبِلتُ التحدي وتمكنت من نيل الشهادة، وبقيت مدرساً أستاذة مع إلى أسطوانات المستويات في مواقع حملة الشهادات، فيشعري ذلك بالقزمية بين عمالقة المستوى.

مع تحولي وانتقالي إلى عدن برزت مشاكل جديدة، وكان لابد من تجاوزها، ومنها عوامل الاستقرار، والاستقرار في عدن هو وجود المترل، وقد شغلت هذه المشكلة أكبر جزء من

أفكر يوماً ما تفكيراً جدياً بالسفر المخطط الذي يسبقه الإعداد التام.. والاستعداد الخاص العام.. ولكني مع ذلك سافرتُ كما يسافر كثير من الناس.. واختلفت عنهم في القصد والرؤية والهدف.. كان الجميع من حولي مشغولين بالحديث عن عرض تليفزيوني سيعاد بعد دقائق لآخر جولات المباراة العالمية لـ ((محمد علي كلاي)).

مرحلة وجودي بعدن، وقد عبرتُ عنها في الشطر الأول من «فيض الذكريات» بإسهاب . وأما مجال الخدمة في التربية فهو المقياس الحقيقي لـ مثلي في عاصمة كعدن، التي كانت تزخر بالمفكرين والمنظرين و«التقدميين»، وكانت مسألة التحولات الفكرية والتعليمية والثقافية هي الشغل الشاغل للأجيال المخدوعة، وكانت المدرسة في تلك المرحلة تشبه الثكنة العسكرية من حيثيات الأشكال النضالية والمراقبة ونفثات التنظيمات النارية وممارسة التجاوزات الأدبية ضد العادات والتقاليد وضد بعض شروط الدين، وهذا كله يتطلب من المعلم قدرة فائقة على المعاشية الصعبة وخاصة إذا كان يبتغي لشريحة العائلات المنسوبة للدين والتدين «الكهنوت» كما تسمى في تلك المرحلة.

فحينما نرى تحدي بعض المدرسين مفاهيم الدين بالإفطار في رمضان علناً وشرب السجائر في المكتب أو المدرسة، مع إصدار ألفاظ السخرية والاستهزاء من الصائمين وأفكارهم، وحيث تسمع التعليقات الرسمية عندما يؤذن المؤذن للصلاة وما يقوله المتحذلقون من الرموز عن العبادة والمصلين، وقد يصعب على المدرس مثلي أن يخرج من المدرسة لأداء الصلاة، أما أن يصلي في المدرسة فالأمر أشد وأفظع.

وهنا تجد أن مسألة الدعوة إلى الله والوقوف ضد هذا الحشد من الانحرافات مسألة صعبة للغاية؛ ولكن بصيص الأمل كان يظهر لي أحياناً في مادة التربية الدينية التي كنت أدرسها في بعض الصفوف، ومن خلالها كان الأمل يتسرب إلى نفسي بإمكانية التعبير عن مواقف الإسلام الحق في غمرة التشويه والتسفيه، ومع هذا فقد نلت بسبب ذلك بعض الأذى والمضايقة من بعض الأشكال النضالية كما كانت تسمى، إضافة إلى بعض المدرسين العرب المتقدمين لتدريس بعض المواد الفكرية والعلمية كالإقتصاد السياسي والحمادية التاريخية والفلسفة وغيرها.



في نجران..

إجراءات المرور إلى جدة لغرض الحج بدأت تأخذ مجراها مع الجهات المختصة منذ اليوم الأول لوصولنا.. وعلينا أن نتحلى بالصبر لبعض الوقت حتى يأذن الله بالسفر.. وكان واجباً عليّ - والحال كذلك - أن أضع للوقت برنامجاً مرتباً: زيارة المدينة الحديثة أولاً .

الصعيد.. مساحة من الأرض المعمّرة حديثاً جمّعت فيه كل المباني الرسمية للحكومة وغير الرسمية من مساكن تجارية وشعبية.. وحتى المساجد بين الأحياء الحديثة توحى برقة الذوق وأصالة الفن المعماري الإسلامي البارز.. تحولت مع زميلي في شوارع الصعيد.. ولفت نظري مبنى واسع الجوانب ظننته بادئ الأمر مدرسة ثانوية أو جامعة.. حيث إن روعة تصميمه توحى من الرؤية المباشرة أنه موقع ذو أهمية تاريخية أو حضارية.. قال لي رفيقي :

- وهذا هو سوق الخضار !!

ورأيت مبنى أكثر فخامة وروعة وتصميماً وفي وسطه ظهرت مئذنة عجيبة ، قيل لي : إنه معهد إسلامي.. شوارع المدينة واسعة ونظيفة.. وحركة سياراتها هادئة ومنظمة.. نتيجة لسعة المسارب وتنظيم المرور.. لفت نظري كثرة العمال الباكستانيين ينظفون الشوارع ويحملون القمامات.. ويعملون في البناء وفي نقل البضائع من مكان إلى آخر.. وعرفت أنهم يوجدون في عموم المملكة بأعداد كبيرة نتيجة تعاقد رسمي بين الدولتين .

ركبنا « التاكسي » في طريقنا إلى « البلد » .. وهو اسم يطلق على نجران التقليدية.. كنا طول الطريق نشاهد على الجوانب عدداً من المباني القديمة والحديثة..

وأشار رفيقي إلى متزلٍ قديمٍ مبني من الطين يقبع على طرفٍ وادٍ يحُفُّه النخيل
فقال:

- هناك كنا نسكنُ خلالَ الرحلات السابقة.. نَنَحَلُّ حِلَقاً كل مساء تحت
العمود الكبير .

ثم صمت فجأةً وسرح إلى ماضيه في هذه المدينة العجيبة.. وما كدنا نتوسط
الطريق العام في المدينة الأثرية حتى أشار « السهل » إلى أحد المنعطفات وقال :
- هنا اصطدمت بنا السيارة.. وهنا أصبتُ في رجلي.. وهناك
المستشفى الذي عُولِجْتُ فيه .

وتذكرتُ حينها صورةً فوتوغرافيةً كان قد أرسلها لي إلى عدن وهو يقف على عكازين..
حقاً لقد كان منظرًا يثير الشفقة.. لقد أخفيتُ الصورة حتى عن والدته خشية انزعاجها..
وكنْتُ حينها أحدث أخي الأكبر محمدًا عن هذا الامتحان النفسي والبدني الذي أصاب هذا
الإنسان الصبور في أقصى مراحل حياته وأدقها وأهمها.. لاشك أنه كان تدميرًا نفسيًا صعبًا
ل للغاية.. وامتحاناً خطيراً لمعدلات الإيمان.. لقد أثبت الأخ « السهل » أنه جديرٌ بشرف
القرآن الذي يحفظه بين جنبيه.. فلقد تجاوز كلَّ الامتحانات الصعبة.. وخرج صلباً أكثر مما
كان عليه.. وتلك صفة أهل القرآن والإيمان .



في السوق..

« البلد » .. خليطٌ من القديم المندثر والحديث المتطور.. تجاورُ عجيبٌ لل مبانٍ
وهندستها المعمارية على أرض واحدة.. وبين هذا الامتزاج العجيب في الظواهر تجد
الغربة أكثر في المتناقضات الأخرى.. السيارات والحواسي.. الرجال والنساء..
البادية والحضر.. البضائع المستوردة والإنتاج المحلي.. هنا يظهر لي عكس ما رأيته في

شمال الوطن.. هنا تبرز معال سم حضارية أكثر مما تبرز في الحديدة.. فجندي المرور هنا رجلٌ حازمٌ قويُّ الشخصية.. يبدو من محياه الانضباط وال مسؤولية.. ثم هنا زحامٌ آليٌّ متضاعف.. وسياراتٌ فخمةٌ التصميم والحجم والنوع.. وقيل : إن غالبها من السيارات الأمريكية.

على مدخل « البلد » تزدهم السيارات في عرضٍ جميلٍ للألوان المتناقضة وال منسجمة.. ولكن الازدحام يعيق الحركة ويضطر السائق ومن معه إلى الانتظار الطويل.. إنه مشهد غير مألوف في عدن ولا في غيرها من بلاد اليمن.. هناك الزحام لا ينتج إلا من حالتين : حادثٌ مفاجئ أو زعيمٌ يزور البلاد .

لقد طال الزحام.. حتى قرّرنا أن نسير على الأقدام.. ما دمنا نريد الاطلاع والفرجة.. شاهدتُ على مدخل البلد مواقع بيع السيارات بال حمزاد العلني.. وتلك ظاهرة لا نعرفها في بلادنا.. وأصوات الدلالين والباعة تزجر عبر مكبرات الصوت فتحدث إزعاجاً يتضاعف بأصوات المزامير من السيارات المزدهمة .

إن الميكروفونات في بلادنا لا تُستخدم إلا في حالتين : رسميةٍ خلال خطاب مسؤول رسمي.. شعبيةٍ خلال حفل فني.. وربما استخدمها بائع الآيس كريم في بعض مناطق الشمال.

عندما هالني عدد السيارات المحتشدة ضحك رفيقي وقال :

- إنك لم تشاهد هنا شيئاً بالمقارنة مع ما ستراه في مدينة جدة .
قلت له :

- لكن المشكلة في البترول.. وهذه سيارات يبدو أنها كبيرة وتتنزف بترولاً.

ضحك صاحبي ملء فيه وقال :

- البترول هنا رخيصٌ جداً.. الماء المعلّب أغلى سعراً من البترول.. بإمكانك أن تملأ سيارة كبيرة بعشرين ريالاً .

يا لِّلْعَجَبِ والغرابَةِ فيما أسمع !! هل حَقُّ هذا ؟؟ وكان حَقًّا وصدقًا.. الماء المقلب
أعلى سعرًا من البترول.. نحن في بلادنا نعتبر البترول مشكلةً كبرى من ارتفاع
أسعاره.. إن ما يكفي هناك لـ حملء خزان دراجة نارية يمكن أن يملأ نصف خزان
سيارة كبيرة هنا .

دخلنا إلى السوق الرئيس في البلد.. وتعرفنا بواسطة « السهل » على بعض الأفراد..
فصاحبي يعرف عددًا كبيرًا من الناس هنا لبقائه بنجران زمنًا يعمل بها.. كان أحدهم
بائع كتب قَدِمَ من عدن عبر الصحراء منذ أكثر من عامين.. شابُّ هادئُ الطَّبَّاعِ يبدو
على محياه الاتزان.. يتحدث كثيرًا عن أشواقه لأهله ووطنه.. قال : إنه لا يـ متع
براحة كافية لكثافة العمل.. حتى يوم الجمعة لا بد أن يعمل.. يـ متع أن تتهيا له
أسباب الرحلة إلى مدينة أخرى أو يجد عملا آخر.. وهناك شاب يمني آخر يعمل في
معرض لأجهزة الراديو والتلفزيون.. تحدثنا معه بعض الوقت قبل أن نشترى منه
جهاز تسجيل صغير.. قال : إنه يعمل هنا منذ ثـ مان سنوات.. لقد أصبح مشتاقا
لوطنه.. إلا أنه غير مطمئن إلى الرجوع.. جاء من وطنه عبر الصحراء ماشيا على
قدميه.. كان يُصدِرُ آهاتٍ حَرَّاءَ تطوي هَمًّا دَفِينًا.. ويخلطها بطرفة ساخرة وضحكة
مكتومة .

اقترح علي زميلي « السهل » أن نقوم بزيارة لسوق « الحراج » أو « المزاد »
لنشترى شيئًا من اللوز والزبيب نحمله هدية إلى جدة.. إنه سوق يمتدُّ امتدادًا عجيبيًا
على مساحةٍ من الأرض كبيرة.. كنت أعتقد أنه شارعٌ أُطلق عليه اسم «الحراج» كما
هو الحال في عدن.. واندهشتُ اندهاشًا لـ ما رأيتُ السوق بمحتوياته المتكاثرة موزعًا
على مساحة الأرض المترامية.. بضائعُ مفروشةٌ على الرصيف أو على مراتب خشبيةٍ
قصيرة.. وأغلب الباعة فيه من النساء.. إنهن نساءُ البدوِ بملابسهن وحُلِيِّهنَّ وحجابهن
المسمى « بالبرقع » لا تـ ترى منها سوى بريقَ عينيها.. يـ بعنَ أشياء كثيرةً ومتنوعةً..

اللبان، الكحل ، الجاوي ، الحُلِّيُّ الفضيَّةُ ، المرجان ، فصوص العقيق ، الكهرمان ، وأحجارٌ متنوعةٌ ذاتُ قيمةٍ ، وقَرَبٌ من السمن البدوي ، والزبيب الأسود، وال ملح ، وعلب كبيرة وصغيرة تحتوي على العُصْفُرِ والوَرَسِ والشذاب والحناء والهَرْدُ.. وتوابلٌ لا تُحصى لكثرتها وتنوعها، وحتى « عراجين التمر » وشعر الحيوانات وجلودها المدبوغة وغير المدبوغة ، وخيام ، وأطعمة ، وبذور ، وزهور ، وريحان ، ومشوم ، وعطورٌ محضرةٌ محلياً ، وثيابٌ مصبوغة ، وأحذيةٌ جلدية بدويةٌ ، وملابسٌ صوفيةٌ ، وبِطانات كثيفة ، وجِفافٌ ، وأوتادٌ حديديةٌ وخشبيةٌ ، وأدوات نجارة وحدادةٌ ، وأوانٍ خشبيةٌ وخزفيةٌ ومعدنيةٌ ، وهناك كلُّ شيءٍ يحتاجه الإنسان .

تري المرأة قد ترَبَّعت على عرش المفروشات والبضائع ولا تكاد ترى من جسدها شيئاً ما سوى كَفَّيها ومحاجرِ عينيها التي تُطلُّ من خلفِ ستارٍ أسود.. وتُلَفُّ حول وسطها حزاماً من الفضة أو من الجلد اللامع المطعَّم بالفصوص والقطع الفضية.. وتراها تبيع وتُحاور المشتري بطلاقةٍ وقوَّةٍ شخصيةٍ.. لقد كان منظرًا غريباً في وسط المدينة الواسعة المنظمة.. ولكنه أضحى مألوفاً لدى عامة الناس حتى زالت عنهم عُقدَةُ الغرابة.. وفي نفس الساحة الواسعة يقف رجال أمام معروضاتهم المختلفة كالملابس الجاهزة وألعاب الأطفال وأجهزة التسجيل وأشرطة الكاسيت والعطور بأنواعها.. ومفارش لتصليح الساعات ومسح الأحذية وإصلاحها.. كل ذلك على الأرض .

وأطفالٌ يقفزون هنا وهناك يلبسون القمصان الشعبية الجميلة.. وسياراتٌ محتشدةٌ في ركنٍ جانبيٍّ رأيتُ على بعضها أكياساً من اللوز السوداني والفول والزبيب وال مكسرات وحبوب مختلفة.. وكلهم يبيعون ويصخبون ويضحون.. وتجمعاتٌ للبدو يتحدثون ملء أشفاههم بلهجتهم الغليظة.. وفي آخر المطاف شاهدت امرأة تعرض عدداً من سلالِ الخوص الملون وال مبخار الملونة والأزيار والأكواز وحجارة كبيرة وصغيرة لسم أتعرف على نوعها وفائدتها .

كلُّ من هؤلاء ينتظر رزقه.. ورزقه يسعى إليه.. وقفنا أمام بائعِ سمنٍ بدويٍّ.. وحوله عشراتُ القَرَبِ صغيرةٍ وكبيرةٍ.. سأله رفيقي عن الأسعار.. عرض لنا لونين من السمن.. أحدهما بقري وآخر سمن أغنام.. تأملناهما ولم ننتفح على القيمة.. كان المبلغ باهظاً فتركناه .

الأمر العجائبُ هنا البيعُ المزاجيُّ والرغبة الذاتية.. لا توجد قيمةٌ محددةٌ للأشياء وال معروضات.. ولذلك لا بد أن تتجول في السوق كله لتتعرف على أقصى سعرٍ تجده في البضاعة الواحدة.. وأما في الأسواق الرسمية فالعدوى قد سَرتُ قريباً من الاتساع المزاجيِّ في سوق الحراج.. سألنا صاحبَ معرضٍ عن لون من ألوان آلات التسجيل ثم سألنا عدة معارض في ذات الشارع عن ذات البضاعة فاختلقت القيمة اختلافاً بيناً مع أن المواصفات والحجم والإنتاج واللون كله متَّحدٌ.. يخرج البعض في تحديد القيمة عن الإطار المعقول.. في معرض وجدنا الجهاز بـ ٢٦٠ ريالاً ، وفي آخر بـ ٣٠٠ ريال ، ولدى معرض آخر بـ ٤٠٠ ريال ! وأخيراً وجدناه بـ ٢٤٠ ريالاً ! ولو كان لدينا متسعٌ من الوقت لذهبنا نبحث عن أقل من ذلك.. إنه ليس ولعاً بالرخيص من الأثمن.. وإنما بحثٌ ذاتيٌّ عن نسبِ جشعِ الإنسان.. ويلعب الحظُّ ومواهب البائع وال مشتري دوراً بارزاً في إرساء الزيادة والنقصان .

وشيءٌ آخر.. تُعرضُ الملابس المستوردة في المعارض الرسمية بمبالغ باهظة جداً يفوق معدلات التصوُّر التقريبيَّ عندما تقارنه بقيمة الشيء ذاته في سوق الحراج.. مع أنه لا سم يتعرض للفتح أو الاستعمال.. ترى ما هي العلة ؟!



الأخدود..

الأخدود.. وما أدراك ما الأخدود..

اقترح مُضَيِّفُنَا الشَّهْمُ يوماً أنْ نَزُورَ الأخدود.. كنتُ أتُحْنِي أنْ أَزُورَ هَذَا الْمَوْقِعَ النَّاطِقَ بِالْبِرْهَانِ الْقُرْآنِيِّ مِنْذُ أَنْ أُخْبِرْتُ أَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ.. كُنْتُ أَسْتَعْرِضُ فِي ذَهْنِي الْمَعَانِي الْعَجِيبَةَ الثَّابِتَةَ فِي الْقُرْآنِ : { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ . النَّارُ ذَاتُ الْوُقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ } .. وَيَغْمِرُنِي شَعُورٌ مُرْهَفٌ بِالْقَرَبِ مِنَ الْمَعْنَى الْبِرْهَانِي وَأَنَا عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ تَحْدِيدِ الْمَسَاحَةِ الَّتِي أَثْبَتَهَا التَّزْيِيلُ الْقُرْآنِيُّ قَبْلَ مِائَةِ السَّنِينَ .

حَمَلْتُنَا السَّيَّارَةُ إِلَى هُنَاكُ.. وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي سَأَتَجُولُ بَيْنَ مَوَاقِعِ الْأَخْدُودِ كَمَا أَرْجُو وَلَكِنِّي فُوجِئْتُ بِقَوْلِ الْمُرَافِقِ : إِنَّ السُّلْطَاتِ لَا تَسْمَحُ لِأَحَدٍ بِزِيَارَةِ الْمَوْقِعِ وَلَا التَّجُولِ فِي أُنْحَائِهِ.. وَيَكْفِي أَنْ تُطْلَعَ عَلَى الْآثَارِ مِنْ نَافِذَةِ السَّيَّارَةِ !

مَسَاحَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْمَبَانِي الْمُنْهَارَةِ وَالْمَحْرُوقَةِ يُلَاحَظُ حَوْلَهَا وَخِلَالَهَا أَخَادِيدُ حُفِرَتْ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ قَدْ امْتَلَأَتْ بِالرَّمَادِ.. قَالَ لِي الْمُضَيِّفُ الْمُرَافِقُ :
- إِنَّهُ قَدْ زَارَ مَنَاطِقَ الْأَخْدُودِ قَبْلَ عِدَّةِ السَّنِينَ فَشَاهَدَ فِي أَخَادِيدِهَا الرَّمَادَ مُخْتَلِطاً بِرُفَاتِ الْمَوْتَى عَلَى طُولِ الْمَدَافِنِ الْمَمْتَدَّةِ امْتِدَاداً وَاسِعاً .
كَانَتِ الْأَعْمَدَةُ الرَّخَامِيَّةُ وَالْحَجَرِيَّةُ الْمُنْحَوْتَةُ تَبْدُو بَيْنَ الرِّكَامِ نَاطِقَةً بِتَارِيخٍ مَشْهُومٍ مَرَّةً عَلَى هَذِهِ الْمَسَاحَةِ.. مَوْقِعٌ أَثَرِيٌّ هَامٌّ وَذُو عِلَاقَةٍ بِالْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ الْعِظْمَى الْمُتَجَسِّدَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.. إِلَّا أَنَّهُ فِي غَايَةِ مِنَ الْإِهْمَالِ .

وَقِيلَ لَنَا : إِنْ بَعْضُ حِجَارَةِ مَبَانِيهِ قَدْ نُقِلَتْ عَنْهُ خِلَالِ فِتْرَاتٍ زَمْنِيَّةٍ مَاضِيَةٍ إِلَى بِلَادِكُمْ لَتَدْخُلَ فِي تَشْيِيدِ أَبْنَاءٍ أُخْرَى ! لَيْتَهُمْ يُدْرِكُونَ قِيَمَةَ هَذِهِ الْمَآثِرِ التَّارِيخِيَّةِ النَّاطِقَةِ بُلْغَةَ الْقُرُونِ التَّارِيخِيَّةِ الْأُولَى فِيحَافِظُوا عَلَيْهَا.. فَتَكُونَ سَجَلًا خَالِدًا لِمَا يُعَانِيهِ الْمُؤْمِنُونَ فِي عَصُورِ التَّارِيخِ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ .

جاوزنا منطقة الأُخْدود لتدور بنا السيارة دوراتٍ على امتداد الطريق الموصل بين
نجران والحدود كنا خلالها نتحدث عن الإعجاز القرآني.. وما أورده الله من الآيات
على مبسوط أرضه لتكون عبرةً لأولي الألباب .

كان الحديث شيقاً ومفيداً وذا أثرٍ بالغٍ في النفوس.. وكيف لا يكون ذلك والركب
في السيارة يكاد يتفق تـ حاماً على أن هذه الأمة الناطقة بلسان القرآن لن يتأتى لها
العودُ إلى مركز العطاء والإحسان إلا بالعودِ إلى القرآن ومنابع الإيمان.. لقد كانت
زيارتنا للأُخْدود مفتاحاً لسير أغوار العقليات المتقابلة بيننا.. وتَقَارُبِ وجهاتِ نظرٍ
على طريق النور المحمدي الساطع في عقول وقلوب المؤمنين .

لقد تتابعتْ جلسائنا وأحاديثنا على ذات المنوال المسؤولِ مراتٍ عديدةً.. في غرفةِ
الضيوف.. وفي الحديقةِ وبعد أداءِ الصلوات.. لقد أعجبتني شخصيةٌ محدّثي الفدّة..
فهو إلى جانب مركزه المرموق على جانبٍ من الاطلاع وال معرفة في شؤون الدين
والحياة.. وله خُطُواتٌ مرسومة.. وآمالٌ معلومة.. والأهمُّ من ذلك - في مقاييسي
الخاصة - أنه محافظٌ على واجباته الدينية.. ولا يُفَرِّطُ في واجبٍ ولا يتخلى عن
مسؤوليةِ مُنَاطةٍ به.. آراؤه تُتَسَمُّ بالصدق والوضوح.. محبٌ للخير وأهله.. وية حمتع
بحبٍّ واحترامٍ مَن حوله.. واسعُ الصدر.. يكسوه جلالٌ ووقارٌ.. كنتُ أسمعُه كل يومٍ
بعد صلاةِ الفجر في جماعةٍ يخلُدُ إلى غرفته يتلو القرآنَ بصوتٍ شَجِيٍّ وحَسَنٍ يَبُثُّ في
أرجاءِ المنزلِ النور والإيمان والسكينة .



نبش الذكريات..

رَنَ جرسُ الهاتفِ وكنتُ راقداً فانتبهتُ وكأن رنين الهاتفِ يخصُّني هذه المرة..
ودخل رفيقي « السهل » ليؤكِّدَ صدقَ الحَدْسِ الذَّهْنِيِّ وقال :
- تليفون من جدة ! أحمد أخوك !

كان حديثاً شيقاً وعاطفياً أكثرَ من كونه عرضاً للأحوال والاستعدادات.. ولما كنتُ على وشك الانتهاء سرَدَ لي أخبار الأسبوع ذات الأهمية.. أحمد بن علوي المشهور وصل من الحديدة.. عددٌ من الحجاج قد سألوا عنك.. و.. و.. وحول المكالمات إلى الوالد محمد بن أبي بكر الحامد ، وكان حواراً مسؤولاً من لحظاته الأولى.. ثم تحدثتُ مع ولدي نزار المشهور ، وهنَّأني بنجاحه في الامتحان.. وحديث عن العائلة والإخوان.. وحديث قصير مع طفلة الوالد محمد ((إيمان)).

واعتقدتُ أن سيلَ المكالمات قد انتهى.. وإذا أنا بصوت أجشٍّ وضَحُوكٍ ، وإذا هو ضيفُ العائلة الجديد أحمد بن علوي المشهور القادم جَوْاً من الحديدة.. وذهب يضحك ويسخرُ من تأخري ونجاحه في الوصول قبلي.. وكأني شعرتُ بفارق الزمن المساعد على النجاح لديه فسلمتُ الهاتف « للسهل » ليكمل الحديث معه .
أخذتُ مكاني على الفراش أجوبُ فراغَ الذاكرةِ المشحونَ بالاحتناقات والمستجداتِ والتوقعاتِ واستدعاءاتٍ من الماضي وتقرير للحاضر وتفاؤلٍ في المستقبل.

نعم ؛ هذه صفةُ الإنسان الحي.. يستطيعُ أن يستعيدَ ذاكرته وأن يلاحق أمانيه.. أبي وأمي وأخوتي.. وكذلك أطفالي.. هذه أصواتُ الجميع تتداخل في مخازن الذاكرة فتُحدثُ رنيناً متشابهاً.. سأكون في الأيام القريبة معهم بإذن الله.. ويسري إلى أعماق النَّفْسِ نسيمُ الاطمئنان.. فأشعرُ بوجودي أكثرَ من ذي قبل.. أَلَسْتُ قد أُصِبتُ بسُقْمٍ في مُعدَّلاتِ التفاؤل ؟ أَلَسْتُ بالأمس كنتُ في مدينةِ العُجُومِ المركَّبة ؟

وهأنذا جاوزتها مخلفاً بها جسداً في رُفاتِ القطيع.. كان يتهمني ويحلم ذات
الأمني والأحلام.. ويستطرد الآمال وينسج أسباجها.. لقد ارتدى حتى ذلك الجسد
على أرض الأبدية البرزخية لا يُدرك إلا عالماً عكسياً.. وطموحاتٍ مجهولة..
انقطعت الطموحات البشرية الأرضية.. واضمحلت الأمنى الوجودية.. فتح بموته
لغيره معالماً وآفاقاً حياةً أخرى لم تكن في الحسبان.. ولم تُرسم لها خطوطٌ
أو يتحدد بها وجدان^(١)..

حقاً ! إنَّ قَدراً مفاجئاً يسلُبُ امرءاً غافلاً أهمَّ عواملِ استقراره لعاملٌ هامٌّ في نبش
ذكرياتِ الماضي ولو بعدَ حينٍ .



الضيف..

اليوم تجري في المترل استعداداتٌ لاستقبال ضيفٍ جديدٍ قيل عنه : إنَّه علاءٌ من
أعلام اليمن ، له دورٌ بارزٌ في نشر الإسلام والدعوة إليه في أنحاء العالم الإسلامي
والأجنبي ، وله أنصارٌ وجماعةٌ ، وقام بزياراتٍ عديدةٍ إلى كثيرٍ من بلاد العالم .

(١) عند انتقال المرء إلى بلد ما لابد أن يترك فيها ذكريات ويحمل منها ذكريات، وكانت
رحلتي من عدن إلى الخارج على غير تديبر واع، كما هو حال سفر زوجتي إلى عالم
الآخرة، من غير سابق ترتيب ولا إنذار ، وكنت عشية أن قبرتها في مقبرة القطيع إلى الأبد
أتذكر سلسلة أمانيتها التي تبوح بها عن المستقبل وآماله، وكانت تأمل أن تسافر إلى السعودية
لتنضم إلى أسرتها وأهلها وأقاربها، وكنت لا أميل حينها لمسألة السفر، فالتفكير في السفر
يجلب الهموم ويفتح أعين البوم على أوسع رؤية، واليوم أنا أسافر ولكن بطريق غير رسمية،
وهي قد سافرت إلى عالم أبيدي استحق أن يكتب عنه ما كتب، فكلانا قد سافر، ولكن
ما أبعد المقارنة بين الرحلتين.

قيل : إن بينه وبين مضيفنا روابط قوية ، وذاك أمرٌ بديهيٌّ.. فالأضيف الذي ألفناه وعرفناه شخصيةٌ ولوعةٌ بالعلم ومُحبةٌ للعلماء والصالحين.. بل إن له علاقاتٍ متينةً بكثيرٍ من أهل العلم والصالح في داخل اليمن وخارجها.. وصل ضيف المتزل القائم في جَلبةٍ ومناقشاتٍ تُحيطُ به من أفراد يلتفون حوله.. رأيتُه شاباً فارغَ الطول أَسمرَ البشرة لا يتجاوز الأربعين من العمر تقريباً.. له لحيةٌ كثرةٌ سوداء.. وفي عينيه بريقٌ حادٌ يُصوِّرُ للرأي نسبةً التحدي المشحونة في ذاته.. يلبس قميصاً وجبةً ملونةً وعلى رأسه عمامةٌ بيضاء لها طرفٌ مخفيٌّ على جانبها .

كان برفقة جماعةٍ من أنصاره وتابعيه.. ولكنه يتفرّد عنهم بوعيه وملكاته وقدراته العلمية ووفرةٍ معارفه ورصيده الاجتهاد.. جلس في القاعة متصدراً.. فتذكرت حينها المثلَ القائل : « المرءُ حيثُ يَضَعُ نَفْسَهُ ».. وقُدِّمَ الغداءُ قبل أن يفتتح حديث الجماعة.. وعلى المائدة كنتُ أحاول جمعَ شتاتِ العبارات والتعليقات والإشارات الصادرة منه لأكونَ عنه معلوماتٍ أوليّةٍ أفهمُ بها المدى الذي يمكن لي من خلالها أن أُطلِّ على شخصيته الثابتة.. وعَبَثاً فعلتُ.. إذ لم أستطع أن أُلِّمَ شتاتَ الكلمات المتلاحقة الممتزجة بالطرفة والسخرية والكلمة الهادفة وصرير الملاعق والأواني .

فتح بعد الغداء حواراً هادئاً عن الدين الإسلامي والعلم الحديث.. وشرح أطرافاً من واجبات المسلم المعاصر.. ورأيتُه ممسكاً بزمام النقاش من كل جهته.. حتى عندما حاولتُ أن أسأله سؤالاً فلَقاً حملته معي من أسوار القلق الرسمية أجاب إجابةً ذكيةً تدلُّ على ذكاءٍ مُفْرِطٍ وتَوْقَعٍ لكلِّ امتحانٍ لفظيٍّ مع ابتسامةٍ رقيقةٍ.. وسألني عن مصدرٍ ولادتي وتعليمي ووجهتي فأجبتُه باختصار.. وكنتُ أتعجب من تفاؤله بالزمان مع انقباضي من كلِّ شيءٍ فيه ! حتى نفسي !!

وبعد صلاة العصر خرجت من المتزل إلى المدينة وأنا أستعرض الرجل من قمته إلى قاعدته هيئة وسلوكاً وثقةً وتعبيراً.. ومعلوماتٍ وعزماً وإصراراً وتفاؤلاً.. فأتعجب من هذا الحماس الذي يصيب بعض المؤمنين في حالاتٍ معينةٍ ثم ينقلبُ إلى نقيضٍ وإحباطٍ لدى آخرين .

إنه صراعٌ حقيقيٌّ مع أسباب الرفض والتذبذب تنتهي بالاموت أو الخمول.. أو الاعتزال وترك الأمور لمن يرغب فيها.. أنا لا أشك أن الإسلام مسؤولياتٌ موزعةٌ في دوائرها على كل مسدٍ.. ولكنني أنظر إلى المعالجاتِ المرجوةِ بصُورٍ تختلف عن هؤلاء.. ولكنهم على ما يبدو بحماسٍ مسؤولٍ.. ليمتلئ القلبُ أحياناً بشعورٍ صادقٍ فيما ينتهجون ويعالجون الأمور.. نَبْهِي صديقي « السهل » أن آخذَ حَذْرِي من السيارات القادمة.. سألني عن هذا الذهول الذي أنا مشغولٌ بأسبابه.. فلَمْ أَفْصَحْ له عن هواجسي المتدافعة.. واستمعْتُ إليه يُنادي على سائق « التاكسي » الذي وقف مستجيباً لندائه.. وركبنا ولم أَشْعُرْ حقاً كيف تحوّل ذلك التفكير المستعمرِ منافعَ إحساسي قبلَ ذلك ليصبح تهيئاً للمرح والفرح منذ أن رأيتُ سائق « التاكسي » العجوز .

أحياناً يستطيع المرء أن يدرك سريانَ الأرواح بين الأفراد.. واتصالاتها الباطنية العاكسة أنواعَ الأحوال والانفعالات على الجوارح ، حتى لو لم تسبق للأشباح الهيكلية مُقدّماتُ التعارف.. كان السائق رجلاً عجوزاً يرتدي لباس الأعراب التقليدي.. ولحيته كثة بيضاء.. وعلى شفثيه ابتسامة واضحة تجعل على سماته وملامحه التفاؤل والإشراق النفسي.. ولما تحدّث معنا تبين لنا أنه على جانب كبير من الصفاء وحب النكتة والمرح ، قال: إنه متزوجٌ بثلاث نساء.. ويمكث عند كل واحدة أربع ليالٍ متتابة.. فقلت له :

- لعل هذا هو سِرُّ مَرَحِكَ وفرحك !!؟

فضحك وعَلَّقَ بكلامٍ لطيفٍ وظريف.. ثم عرض علينا أن نعمل عنده في مزرعته لقاء أجرٍ ماديٍّ كبيرٍ وسَخِيٍّ.. لقد كان جاداً معنا لاعتقاده أننا نبحث عن عمل.. ولكننا أقنعناه بعدم رغبتنا في العمل الآن.. مر الوقت معه سريعاً بين الصعيد والبلد.. ونقدناه الأجرة.. ثم نزلنا إلى السوق ، وبعد أن عدنا إلى المتزل وجدناه هادئاً بعد الضوضاء وحرارة النقاش والحوار الذي شهدته غرفة الاستقبال أثناء فترة الظهيرة وما بعدها.. وقيل لنا : إن الضيف الآن قد رحل إلى جدة.. وكنتُ فضولياً فسألتُ أحدهم : ما وظيفته ؟ فقيل لي : محاضرٌ في إحدى جامعات المملكة مع أنه يمني الأصل والجنسية.. وتلقى دراسته العليا في فرنسا.. واكتفيتُ بما سمعت.. فالرجل إذن على جانب من الأهمية في عصره ولا شك .



الإجراءات في «الخضراء»..

اليوم الجمعة.. ميعادُ الذهاب إلى « الخضراء » لاستلام بطاقة المرور للسفر إلى جدة.. لقد مرَّ عليَّ أسبوعٌ كاملٌ منذ أن وصلتُ إلى مدينة نجران جُبتُ فيه شوارع المدينة واشتريتُ بعض الهدايا المتواضعة لأهلي.. كان منها طَقْمٌ ذهبيٌّ لِمَاعٍ بهَرَنِي شَكْلُهُ في سوق المعروضات المستوردة.. وكانت قيمته معقولة.. ولا محتُ البائع المتلهّف.. وكان فلسطينياً.. وخلال فترة ترتيبه للطقم المذكور ووضعه في الكيس اليدوي لِمَحْتٍ حولي سوقاً حرّاً غيرَ ذي أَسْفُفٍ أو معارض.. كلُّهم يبيعون على الأرض وسياراتهم خلفهم.. أوانٍ من المعدن والزجاج والإستيل والخزف المزركش والقاشاني ذات ألوان وأحجام مختلفة ومغرية شكلاً وقيمة .

أشار لي البائع بالبضاعة فنقدته المبلغ.. ولا محنت في عينيه آثار الية سم والغربة..
أو هكذا تصورته .

أتذكرُ ليلَتها أننا سرنا كثيراً في الأسواق باحثين عن الهدايا.. وصلينا المغرب في أحد
المساجد ثم خرجنا نشرب الشاي على حافة الطريق العام في أحد المقاهي
الجميلة.. كان « السهل » من عادته أن يحدق في المارة حتى ليكاد أن تخرج عينيه من
محاجرهما ، ولربما جرت قوتهما المغناطيسية بعض المارة فالتفتوا إلينا .

أشار إلى ثلاثة من المارة وقال :

- هؤلاء من جنوب اليمن.

ورأيتُه يحدق فيهم بقوة وتركيز.. حتى جرَّتهم أقدامهم إلى جواره.. وابتسم أحدا
لما رآنا.. وأشار على صاحبيه بالجلوس فجلسوا حولنا.. وبدأ « السهل » يلقي
شباكه اللفظية ويتساءل شغفاً بهم بأحوالهم وأخبارهم.. فأخبروه بما ل سم أكن أتوقع !
ولا سم نفارقهم حتى صاروا لنا أصدقاء وبعد أن أفرغنا لهم شيئاً من أحوالنا ووجهتنا .
كما أخبرونا بأدق تفاصيل حياتهم في عال سم الغربة والهجرة.. وأنها همومٌ متشابكة..
وغمومٌ متشابكة.. ونحن كما قال الشاعر: « كلنا في الهمم شَرَق » .

حقائبُ السفر محزومة.. ونحن الآن في انتظار السيارة الخاصة التي سنستقلها إلى
الخضراء.. ورفيقي « السهل » يبدو متفائلاً وحيوياً اليوم.. جاءت السيارة على
موعدهما.. وكنا عدداً من الأفراد لهم وجهاتٌ مختلفةٌ وغاياتٌ متباينة.. ولكنها على
طريقٍ واحدٍ.. وخلال طريق الانطلاق إلى المجمع العام للجوازات والترخيصات كان
الصمت هو الغالب.. ولا يتكلم أحد منا بلغة معلومة إلا محرَّك السيارة ومزامير
المواصلات الذاهبة والآية .

ورفع الجندي الحاجز الخشبي لدخل إلى الخضراء الجرداء.. الغبراء القفراء..
ولا سم نكن في حاجة للتأمل في طبيعة المفارقات الكائنة بين التسمية وال مسمى..
فلا مهمة الدقيقة التي نحن نطلبُ إنجاحها لا تسمح بالتفكير أو الامتداد إلى خدمة

الخيال وإعمال المواصفات الجمالية أو الذوقية في ركام البشر والصخور والخيّم والقمامات والسيارات الرابضة في المجمع الواسع .

الخضراء مركزٌ أمّنيٌّ في منطقةٍ حدوديةٍ تفصل بين دولتين وسياستين.. وقضيتين وتجربتين.. ولولا ارتباط المرء بالإجراءات الرسمية في هذه النقطة الساخنة لـ ما رَغِبْتُ نَفْسٌ بشريةً أَنْ تَرْتَدَّ إِلَيْهِ مرتين.. « فال مؤمنٌ لا يُلدَغُ من جُحْرِ مَرَّتَيْنِ » .. حيث لا يُدْرِكُ مدى القلق والتدمير الداخلي في هذه المواقع الفاصلة بين الرفض والقبول وبين النكوص والاستمرارية إلا مَنْ رافقته مَهْمَاتُهَا واصطَلَى قلبه بنارها.. ولذلك فالوقتُ يُمرُّ بنا بطيئاً تحت نافذةٍ صغيرةٍ يَلْتَفُّ حولها عَشْرَاتُ المسافرين لكلٍّ منهم مهمةٌ مشابِهةٌ لـ ما يليه.. وهم بين قائمٍ وقاعدٍ.. ومُتَكَلِّمٍ وصامتٍ..

واللَّغَطُ المتنامي من الأعداد البشرية المحتشدة يملأ الساحة الترابية العريضة ، والعيون مشدودةٌ إلى النافذة ، ونادى منادٍ من الخلف أن موقع تسليم بطاقات المرور قد انتقل من مكانٍ إلى آخر .

ويا لِلْعَجَبِ العجائب.. فالتناس لا يجمعهم في هذا الموقع غيرُ حاجةٍ مُلِحَّةٍ ! فلا غَرَوْ أن رأيتهُم قد اتجهوا إلى حيث يُشير المنادي كالأجانب يَطُأ بعضهم بعضاً ، وأشار «السَّهْلُ» إليَّ أن ألحق به على طريق الأشباه والأمثال حيث يعيدون تركيب التفاهم جِوَارَ نافذةٍ أخرى مغلقةٍ ، واخترت لي بين الجموع المحتشدة موقعاً قريباً من النافذة يمنعي عن أشعة الشمس المحرقة ، وافترشتُ حذائي على الأرض الرملية وجلستُ صابراً محتسباً أتأملُ سيقانَ البشر وهي تـمرُّ عن يميني وعن شمالي وأمامي مجردةٌ عن ثيابها كبيرةٍ وصغيرةٍ ، ضخمةٍ ودقيقةٍ ، وبعضها تنسدلُ عليه أطراف قمصانٍ وَسِخَةٍ ملوثةٍ وأحذيةٍ متنوعةٍ من الصندل العالي والمتوسط والملتصق بالأرض والحذاء المطاطي والجزمة المخرقة وجوارب سوداء وزرقاء وبـنيةٍ ، ومفارقاتٍ عجيبةٍ تظهر للـ متأملٍ في المستوى الأدنى لـ مواقع الخطوات في ازدحام البحث عن الذات .

كان رفيقي « السهل » قد اختار له موقعاً آخر وقد بدا عليه الملل والقلق للتباطؤ الواضح في الإجراءات الرسمية من قِبَل المسؤولين، كنت المحمّ منذ أن توزعنا مع الناس في هذه المواقع الجديدة منعدم البشاشة مكفهر الوجه مشوش الحال ، يَنكُتُ الأرضَ بعودٍ صغيرٍ بيده ، وكأنه يرسم تخطيطاً لنبضات قلبه القلق ، وقد يرفع رأسه ليتأمل الأفراد حوله ليجذب من يتناسب مع خواطر ذاته ، وكأنه لم يبعثر على أحد تميز فيه نظرات مستقرة ، فرأيتُه يخفي وجهه تحت عمامته الحمراء غضباً من كل شيء ، كان يعتقد كما قيل له أننا سنجد تسهيلات متعددة لإخراج البطاقات الموعودة وأننا لن نتأخر كثيراً ، ويمكن لنا أن نكسب صدر النهار للرجوع إلى المدينة للبحث عن مقاعد في أول طائرة تسافر إلى مدينة جدة ، هكذا كان يرسم ويفكر ، ولكن قيل قديماً :

ما كُلُّ ما يَـ حنّى المرءُ يُدرِكُهُ تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

وضاق المكان بالناس ، ورأيتهم يحتشدون قريباً مني حتى إن بعضهم يضع قدمه في حجري ثم يعتذر ويضعها على الأرض ، فعرفتُ أن الموعد قد أُرِفَ ، وجلجل صوت أحد المسؤولين من خلف المكبر يدعوهم إلى الهدوء والجلوس .

وجلس الجميع تلبيةً لرغبة الأمر وحرصاً على عدم إغضابه ، فمضت الجميع بين يديه ، وتليت أسماء تلو أسماء ، وأخذ المذكورون يذهبون تباعاً للاسم حتى فرغ المكان إلا من قلة قليلة كنا نحن منهم لسوء حظنا لم يناد بأسمائنا ، وبدا القلق يرتسم على الحيا ، ويزداد الشعور بالإحباط حتى ليكاد يطغى على سلامة التفكير .

وكان « السهل » يتحمل حمل ويتنقل من مكان إلى آخر ويصدر كل حات نايبة وموجعة إلى مخاطب مجهول كان قد أوعدته بترتيب الأمر والإسراع بإخراج البطاقات، لم أشأ أن أتحدث في مثل هذه الظروف مع « السهل » حيث كان قابلاً للانفجار بمجرد الاحتكاك..

ويمرُّ الوقت بطيئاً وثقيلًا ، والشمس بدأت تغزو بحرارتها اللاذعة أجسادنا ، ويسود المكان صمتٌ وهدوءٌ غريبٌ ، الكلُّ في لحظةٍ ترقُّبٍ لما يحدثُ أو يُقرَّرُ بشأن البقية ، فالصوتُ الذي كان يمدُّ القلوبَ بالتفاؤل خلال قراءة الأسماء قد توقف ، وأغلقتُ النافذة وأصبح الفشل ممكناً باستقرار عوامله الظاهرة .

وجوهٌ كثيرةٌ تشرَّبُ إلى النافذة ، وعيونٌ أكثرُ منها تحدِّقُ في ثنايا القضبان ، والكلُّ يجمعهم همٌّ متشابهٌ وظروفٌ متوازيةٌ إلى حدٍّ ما.. مساكينٌ وغرباء.. في هذه البقعة الغبراء.. البقعة التي ترى كلَّ شيء فيها يمكن أن يتحرَّك على عجلات ويترك المكان . أغلبُ ما تصطدم به العينُ دُخيلٌ على هذه البقعة القديمة قَدَمَ الزمان ، ولذلك فبالإمكان أن تذهب هذه الموجوداتُ المركَّبة وتزول.. الخيم المثبتة.. الصناديق المبنية من الزنك.. عرباتُ التَّقل التي يستخدمها الباعة.. سيارات الحكومة وسيارات المسافرين.. الحمير والأغنام.. والإنسان فوق الجميع.. حيثُ ما أراد أن يتَّخذَ لنفسه كياناً تتبعه أسبابه ولو كان على سطح القمر .

الناس هنا وجوههم محترقةٌ من لفح الشمس.. وثيابهم متسخةٌ ومهملةٌ من طول السفر.. بل يمكن لقارئٍ خبيرٍ بالامعالم البشرية أن يقرأ ملامح الفراغ والبحث عن غايات معدومة.. الشَّفاء تتقلَّصُ بحثاً عن الماء خلال حملةٍ زحامٍ ضروريةٍ لإثبات الوجود النَّسبي.. وموظَّفٌ يرمي علبة ماءٍ على مدِّ كفه تاركاً فيها بقاياها التي يمكن أن تُشبع ثلاثة بطون .

السعيد في هذه النقطة الغبراء من وجدَ له رفيقاً يحدِّثه ويخفِّف عنه وطأة الزمان والامكان ، أما الذين ابتُلوا بالوحدة فهم يتهمزقون من الداخل والخارج . هنا إجراءاتٌ رتيبةٌ ومثيرةٌ للأعصاب تتبرَّم النَّفسُ منها وتزعجها للغاية ، ويُعذِّي ذلك كَلَهَ جوٍّ ساخنٍ خانقٍ تزيد سمومه الرياحُ المتحركة بين الحين والآخر ، وزحامٌ يفتَضُ بكارة الصبر ويجعلها غضباً وصراخاً .

وأَطلَّ الرجلُ من جديدٍ يقرأُ الأسماءَ ويوزِّعُ الآمالَ والتفاؤلَ ، وشعرت بأن قلبي قد أطلَّ معه من جوفِ صَدْرِي ليتفرَّجَ على صاحبِ العقلِ والقميصِ.. حاملِ بوق الإعلان.. النافخِ في صُورِ البشارات.. المؤكِّدَ للكيانِ الذاتيِّ في دوائرِ المسؤوليات.. هل يا تُرى سيكونُ اسمي من بين هؤلاء الأسماءِ المقروءة .. من يدري ؟!

وبدأ القلبُ يرتجفُ مع كلِّ نداءٍ ودعوةٍ باسمٍ من الأسماءِ ، وآذانِ الحاضرين تكاد تقفز من مواقعها لكثرة التركيز والإنصات ، وصاح الميكروفون:

- أبو بكر علي المشهور.. أهلاً وسهلاً .

- حاضر .

وقفتُ على قَدَمِي أنْفَضُ ثُرَابَ الاستقرارِ وأَتَطَّلَعُ إلى مَهَمَّاتِ الاستجابة ، فأخذ الموظف يقارن بين صورتي على البطاقة وبين ملاحي الطبيعية الماثلة أمامه ، وكأنه استشكل أمراً ، فقال :

- در إلى الغرفة الرسمية هناك .

وفتَرتُ أعصابي فتوراً سلبياً جمع لي رُكاماً من اللحم على هيكلٍ مَبْهُورٍ.. وتَوَجَّستُ أشياءَ كثيرةً كان لها وجودٌ رغمَ عَدَمِ وجودها.. ولا سمَّ أَلْبَثُ أَنْ وَلَجْتُ الغرفةَ المنشودة وقلقي يكادُ يَعْصِفُ بَأْتْرَانِي.. فزملاني الذين سبقوني على هذه الطريق منذ الصباح المبكر قد تناولوا بطاقاتهم عبر النافذة الخارجية وذهبوا إلى حيث يريدون.. وماذا عساه قد أصاب حَظِّي حتى دُعيتُ إلى غرفتهم ؟؟؟

سلِّمتُ على الضابط المسؤول وكان « السهل » إلى جانبي ، ولاحظتُ أن الضابط لـ سمَّ يحدِّقُ حتى في ملاحي منذ دخلتُ ، وكلَّ ما فعله أَنْ التفتَ إليَّ ثم أخذ البطاقة ومدَّ بها إليَّ وانصرف يعالجُ الأوراقَ والبطاقات الأخرى .

لـ سمَّ أُصَدِّقُ !! ماذا حدث في الأمر !! والتفتَ إليَّ « السهل » وخرجنا.. لقد كان عاملُ الصدفة القَدَرِيَّة سبباً في أن أكونَ أوَّلَ فردٍ في المجموعة يستلِ سمَّ البطاقة بهذه الصورة ، إذ تتابع الأفراد بعدي على ذات المنوال الجديد .

أخذ « السهل » البطاقة من يدي لتتجه إلى قسم التطعيم ، وكنت متشائماً من متابعة الإجراءات بسهولة ويسرٍ حيث إن الإجراءات الرسمية تتخذ أشكالاً بطيئة ! وفوجئتُ بعكس ما قيل ، بمجرد دخولنا على الموظفِ وَضَعَ خَتَمَ الصحة على الوريقة وأمضى باسمه كاملاً وأعاد إليَّ البطاقة ، وخرجنا من غرفة التطعيم لا نعلم إلى أين نتجه ؟ وماذا بقي علينا من الإجراءات ؟

كنت قد سمعتُ من بعض الأفراد الذين اجتمع معنا وإياهم في ذلك المجمع الصباحي الساخن أن بقية الإجراءات ستؤجل إلى الغد الباكر ، ولذلك كنتُ على يقينٍ بانتهاء نشاطنا المجدي فيما بقي لنا من الوقت اليوم ، ولكن صديقي « السهل » كان على النقيض من ذلك ، كان يرى أن ما سمعته من الناس مجرد كلامٍ ولا بد أن نقطع الشك باليقين ، ولذلك اتجهنا إلى موقعٍ تُدفع فيه النقود المقررة لإكمال الإجراءات .

وقفنا أمام نافذة الموظف والذي كان مشغولاً بعددٍ دراهمه وترتيب أوراقه ، ويبدو لي أنه قد أنهى أعمال اليوم ؛ إلا أن « السهل » اقترب منه وكلَّمه كلَّ حاتٍ رقيقةً يبين له ما نحن بصدده ، صمتَ الرجل قليلاً ثم رفع رأسه بصعوبةٍ بالغة ، وقال :
- انتهى الوقت ، التسليم في صباح الغد .

لكن « السهل » لم يمتنع.. وبقي مُكبّاً على مكتب الموظف من موقعه في ركن النافذة ، والرجل منهمكٌ في عمله لا يُلَوِّي على تَوَسُّلٍ ولا على استعطافٍ ، وكأنَّ «السهل» رأى أن الظرف قد أصبح من الصعب فالتفتَ إليَّ وقال :

- مصيبة ! ماذا نفعل ؟ نجلس إلى الغد ؟ غير معقول ! هيا بنا إلى « فلان » .
وسمّي لي رجلاً مسؤولاً في الموقع له به صلةٌ وعائدٌ .

ذهبنا نستبق المسافة حتى باب المكتب المراد ونادى « السهل » على صاحبه.. ولكنه امتعَصَ وتغيَّرَ لونه بمجرد أن رأى صاحبه واقفاً على بابه ، وأخيراً أبدى أسفه في الأمر، وأكد لنا أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً للمساعدة ، فصاحب الصندوق رجلٌ لا يفهم ظروف الآخرين ، وليس له صلاحياتٌ عملٍ أكثر مما قد عمل ، وبدا

«السهل» يَضِيقُ ويَضِيقُ وتبرزُ ملامح غضبه من خلال عباراته ، وبدأ صوته يرتفع على صوت صاحبه ، وكلُّ منهما يلوم الآخر على عدم فهمه للظروف.. وكان في الغرفة رجلٌ ثالثٌ أثارَ حفيظتي لفضوله حيث كان يتدخلُ بين كلِّ عبارةٍ وأخرى ضدَّ «السهل» وإلى جانب الرجل الآخر.. ولما احتدم النقاش قام الموظف أخذاً بيد ذلك الطُفيليٍّ وخرجا لا يُلويانِ على شيء .

وأرغى « السَّهْلُ » وَأَزِيدَ.. وَغَضِبَ وَعَرَبِدَ.. وقال كلُّ حمارٍ لِمَ يسمعها من القوم أحد.. وخرج إلى الساحة يهددٌ ويتوعّد.. وكأني به أدركَ عند خروجه أن ضيق المواطن سببٌ في ضيق الصدور.. فقد بدأ الهدوء يتغشاه بمجرد أن خرجنا من سجن الآراء وسقف المغالطات الروتينية.. جرّنا الصمتُ المتبادل حتى « مقصف » صغيرٍ يقبع على زاوية من زوايا المساحة الساخنة.. فأخذنا بعض الفطائر وال مشروبات الثلجة.. وجلسنا تحت عربة صغيرة نستمتع بالأكل والشرب والتأمل للموجودات .. ولَمَ يتكلم أحدٌ منا.. فبعض المواقف صمّتها يُعدُّ عينَ الحديثِ المعبرِّ.

والتفتَ « السهل » إلى ساعته فإذا هو قد مرَّ الوقت عن موعد الظهر والغداء، فقال:

- كيف العمل ؟ عودتنا بعد هذا الوقت إلى نجران شبه مستحيلة.. لأن الجنود لا يسمحون بخروج أحد من المواطنين إلا بالتصريح الرسمي ؟
وأخذنا نتجول بين المكاتب وال مقاصف والسيارات بحثاً عن رفيقٍ نعتدُّ مدد عليه في تسهيل خروجنا من النقطة العسكرية.. وفي أحد المكاتب التقى « السهل » بأحد أصدقائه المقيمين في نجران.. فاستفسر منه عن شأن خروجه.. فأكدوا عدم الإمكانية حتى لَمَ يحمل تصريحاً رسمياً بعد هذا الوقت.. واقترح بعضهم أن نرافقهم إلى موقع قريب من الخضراء حيث يقيمون ويسكنون .

بالطبع لسنا في حاجة إلى غربة جديدة ضمن الغربة الكبرى.. فاعتذر « السهل » لهم.. وعدنا أدراجنا إلى مواقع البطاقات والتطعيم وغرف الرخص.. وكان هناك أناس كثيرون في الانتظار .

جلس السهل قريباً من باب مكتب البطاقات يتفرس المارة وال موظفين.. وكأني به على موعدٍ مغناطيسيٍّ لجذب شخصية معينة لأمر ما.. وجلستُ أنا قريباً منه أتأمل الداخلين والخارجين وقوافل من البشر الجائِمة تحت مخيم واسع على أرضٍ جرداء.. وفراغٍ وخواء..

وسرّت الدقائقُ ثقيلةً وباردةً الطبع والانطباع و« السهل » إلى جوارِي.. يرتعد من الغيظ والغضب.. حتى إني لأخشى أن أضع يدي على كتفه أو يده فأفاجأ بالانفجار.. ولا ما طال الوقتُ ومَرَّتِ الدقائقُ الطويلةُ سألتُه سؤالاً سخيلاً لأسبرَ غورَ ذاته وتوقعاته.. فقلت له :

- لماذا نُصِبَتِ الخِيَمُ في هذه المساحة مع أن كافة المنطقة لا يوجد بها إلا خيامٌ صغيرةٌ وأبنيةٌ من الزنك والأخشاب؟
أجاب إجابةً باردةً تؤكد مستوى ارتفاع قلقه ودرجة حرارته إلى الغليان !..
نعم ؛ إنه معذورٌ فيما هو من حال وانفعال..

إنه يَتَعَبُ لغيره.. كان بإمكانه أن يعودَ إلى نجران بإقامته الرسمية إذ إن الحَظَرَ لا يشملُه مثلي.. فأنا المربوط بالرخصة المروية المعلقة إلى الغد.. ولكنه لا يريد أن يذهبَ ويترُكني.. فال موقف يحتم عليه أن يكون صبوراً مُتَّسِعَ الرؤية والضمير.. لاحظتُ في مسافة الذراع كُرَّةً زجاجيةً صغيرةً.. اختفى جزءٌ منها تحت التراب.. فمددتُ يدي فانترعتُها من الأرض.. فكانت سلسلة مفاتيح تنتهي بكرةٍ زجاجيةٍ مُلْتَمَتٍ سائلاً أُحِيطَ بأرقامٍ لاتينية كبيرة.. شغلني هذه الكرة الصغيرة فترةً من الوقت رغبةً مني في معرفة السائل المشحون بها.. ضربتُ الخزان الصغير بحجرٍ مدببٍ فأنهمرَ السائل على الأرض وانتشرت في المكان رائحة البترول !

قلتُ « للسهل » من دون شعور بعد أن قبضتُ على ذراعه :

- إنه بترول ! كنتُ أعتقد أنه ماء !

قال السهل غاضباً منفعلاً :

- أتركُ هذا العبَثَ.. ما الفائدة؟؟

إنه يتحدث معي بلغة الأب الكبير.. ويتحدث عن الفائدة..

نعم ؛ يقول لي عن عملي هذا : ما فائدته ؟

ضحكتُ وقلتُ لنفسِي : « نحن الأطفالُ هكذا.. نحبُّ أنْ نملأَ الفراغَ » .. وكأنه سمعني.. فقد أشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى مفكراً في هذا الحال الذي نحن فيه.. لقد كان صاحبي محزوناً للغاية.. وسرَى إليَّ شيءٌ من الحزن والأسى فرميتُ السلسلة وخزّانها إلى الأرض.. وأخذتُ أفكرُ كصاحبي ويرتدُّ إلي ذهني سؤالٌ حائرٌ فيقول : إلى متى ونحن نفكرُ في أمرٍ لا يمكن تدييره ؟ وما هو فائدة هذا العبوس الجاثم على صدورنا ووجوهنا في هذا الظل الكئيب ؟

واهتديتُ إلى استدعاءات ذهنية جلبها الفراغُ والبحثُ في جوانبه.. فغادرتُ المكانَ أسيحُ في ثنايا مخيلتي.. مرتاحاً مستأنساً بما أرى وألقى.. رأيتُ أطفالاً يلعبون ويضحكون وهم في غرفةٍ كبيرةٍ وحولهم ألعابٌ وصورٌ وكتبٌ.. ورأيتُ أمي جالسةً في ركن الغرفة تتحدثُ مع أبي وعلى صورتهم فرحٌ وجدلٌ وسرورٌ.. وإخواني وأخواتي رأيتهُم فرادى يبتسمون ويلقون بالعبارات المضحكة اللطيفة .

العجيبُ في هذه الاستدعاءات أنها مرتبطةٌ بالماضي رغم وجوده في الحاضر.. فكلُّ شيءٍ أفكرُ فيه أستدعيه وأنظرُ إليه إنما هو تَمَثُّلٌ منحوتٌ في زمانٍ ومكانٍ ذهنيٍّ سابقٍ ألفتُهُ وعرفتُهُ وعشتُ في ربوعه.. إن صراخ الإخوان والأولاد.. وابتسامة الأب والأم وحديث العائلة.. حوارٌ داخليٌّ مقرونٌ بصورٍ كنتُ قد جمعتها في مخازن ذاكرتي بأحور.. ويا لكَ من بلدٍ عجيبٍ.. وغريبٍ.. وحبیبٍ..



العود إلى نجران..

صاح صوتُ أذان الخطيب من مسجد الخضراء ، فالخطبة تبدأ بعدَ لحظات ونحن
لازلنا هنا لـ سم نتخذُ قراراً لشيءٍ ، كنتُ أنتظرُ من « السهل » أن يقولَ شيئاً ولكنه
صامتٌ صمتاً مريباً ومقلقاً للغاية .

لـ محنا أحدَ المسؤولين قادمًا ، فلـ ما رأنا ماكثينَ في تلك البقعة وعرف « السهل
« جلس إلينا يحدثنا عن آخر ما وصلنا إليه ، لكنَّ صمتَ « السهل » وابتسامته الباردة
جعل الرجل يقرأ حقيقة الأمل سم والحنية ، ولذلك فقد غيَّرَ الرجلُ أسلوبَ حديثه وبدأ
لَطيفاً يخفّف عن صاحبنا ما اعتراه ، وأتفقا أخيراً على أن يغادر معه الخضراء في
سيارته ليتمكن لنا أن نتجاوز الخشبة الفاصلة بين الإدارتين .

وسرى الدم في شرايين « السهل » ، وابتسمَ منشرحَ الصدر والوجه ، وبدتْ
نغمةُ صوته تظهرُ جليّةً واضحةً ، وقمنا من مواقعنا برفقة المسؤول إلى مكتبه ليرتب
شأن الخروج من نقطة الخضراء .

تأخرنا بعض الوقت منتظرين انتهاء أعمال المسؤولين ؛ ولكننا قد شعرنا بشيء من
الاطمئنان ، خصوصاً أن السيارة قد وصلت إلى باب المكتب .

الإنسان - رغم العقل والعلم سم والحجم - إلا أنه يملك غرائزَ صيبانيةً تبرز على
سطح جوارحه عند الأزمة والخرج.. وعندما تنسدُّ أبواب الرجاء في وجهه..
ولكنه يضحك ويتهلّل وينشرح عندما يجد مخرجاً من مأزقه.. ولعلنا نعرف حقاً
قيمة الانشراح والانبساط إن لـ سم يسبقه تَبَرُّمٌ وألـ سم وضيقٌ .

انطلقت السيارة خارج الخشبة العسكرية بعد صعوبةٍ بالغةٍ وتـ محيصٍ شديدٍ من
ضباط النوبة وجنود الحراسة.. وأخذَ لفظيَّ وعطاءٍ مع السائق المسؤول . وانطوتْ

مسافة الطريق بين نجران والخضراء انطواءً عجيباً يلحظه المرء المتلهّفُ مثلنا لبلوغ القصد قبل الأوان ، نحن لابد أن نسارع لنلحق الغداء ، أما وقت صلاة الظهر فقد لزم علينا أن نؤدّيهِ عند السكون بالـ حمتل فلا زال من الوقت بقية ، هاهو النعاس يداعبُ الجفّنَ المرهقَ المكْدُودَ ، وأغيبُ لحظاتٍ في سُباتٍ مستعجلٍ ينقطع بحركة بسيطةٍ من السيارة المنطلقة ؛ ولكن إلى متى ؟ لابد أن أغالب النوم حتى أبْدُوَ أمام الركب نشيطاً، لابد أن أتَلَفَتَ بوجهي ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال أتأملُ الجمال الذي أضَفَتْهُ يدُ الإنسان على هذه المساحة.. وأتأملُ في الجهة المقابلة على بُعْدِ بَصَرِي تلك المساحات الشاسعة المطعمة بالشجيرات الشوكية وجذوع السمر والصخور ، وأعيدُ النظر قوياً لأتفحص الوجوه التي حولي فيرون أُنِي يَقْظُ ولستُ بنائم..

يتكلّفُ الإنسانُ أحياناً مَسَحَاتٍ عجيبةً من التصرفات ليرضي به عقليات المحيطين به على حساب صدقه وإخلاصه وكيانه.. كلُّ ذلك محافظةً على توازنٍ وَهْمِيٍّ يفرضه الإنسان على عقليات الآخرين بعملياتٍ صناعيةٍ في مدينة جسده.. واستنفارٍ مزعجٍ لأدواته وجوارحه.. وهو شرٌّ لابد منه..

هذه هي « العريشة » .. قرية صغيرة على الطريق بين الخضراء ونجران.. إن اسمها دليل على كيانها الأصلي.. فالعريشة تصغير للعرشة.. والعرشة البناء المصنوع من الأشجار لسد حاجة الإنسان القديم وحمايته من الريح والشمس والأمطار.. ولعلها بدأت كذلك في عصورٍ خَلَتْ كغيرها من المدن والعواصم.. ولكنها الآن لـ سم تعد بعرشة ولا عريشة.. وإنما هي قرية حديثة المباني والتجهيزات.. تـ ممتاز بمزارعها المنتشرة حولها من ثلاث جهات.. وهذا هو سر تجمع الناس في أسواقها لشراء الأعلاف والحشائش وأنواع الحبوب والأغنام.. إنها الحد الفاصل بين الطريق إلى الخضراء وبين الطريق المؤدي إلى المطار الحديث بنجران..

تَذَكَّرَ أَحَدُ الرِّكَّابِ أَنَّ بَالَا حَمْتَرَلْ ضِيَّافَةً رَسْمِيَّةً لِشَخْصِيَّاتٍ مَرْمُوقَةٍ.. وَأَنَّ الْوَقْتَ إِلَى حَدٍّ مَا لَا يُسَمَحُ بِاللِّحَاقِ.. وَزَادَ السَّائِقُ سُرْعَةَ السَّيَّارَةِ اسْتِجَابَةً لِعَوَامِلِ الرِّغْبَةِ فِي الْحَصُولِ عَلَى غَدَاءٍ دَسِمٍ.. وَكَانَ الْعَجَبُ الْعَجَابُ أَنَّ وَصَلْنَا إِلَى الْبَيْتِ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ !

أَحْيَانًا يَخْطُرُ عَلَى بَالِي أَنَّ الْقَدَرَ يَدْفَعُ عَقْلِيَّةَ الْمَرْءِ دُونَ إِرَادَةٍ سَابِقَةٍ لِيَتَذَكَّرَ أَمْرًا مَا.. فَيَسْلُكُ بِسَبَبِهِ سُلُوكًا مَعِينًا يَجِدُ الْمَرْءُ بِهِ عَيْنَ النِّجَاحِ وَالْإِمْرَادِ.. وَيَعُودُ الْإِنْسَانُ الْإِنْيَانِيُّ بِطَبْعِهِ لِيَمْجِدَ عَقْلَهُ وَمَوَاهِبَهُ.. وَإِنَّ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا سِهَامُ الْقَضَاءِ الْأَزَلِيِّ حَرَّكَتِ الْجَوَارِحَ وَالْحَوَاسَّ..



إلى الحجاز..

((يومُ السبت)) اليومُ الثاني لنا في هذا المجمع الساخن « جوازات الخضراء » ..
يبدو في الوجوه تفاؤلاً مرسومٌ بألوان من الرجاء والتوفيق.. حان موعد التسليم..
وتحركنا وفوداً متحركةً إلى موقع الصندوق.. وسَلَّمْ كُلُّ فردٍ بطاقته المطلوبة وطلب
منّا الانتظار..

هناك مساحة من الأرض اعتادت أن تستوعب أهل المطلب المتشابه مفروشة
بالتراب اللين.. رأيتها قد اكتظت بالجالسين من كل حدب وصوب.. أوجهٌ مختلفةٌ مع
تشابه تركيبها.. ورأيتُ وجوها عرفتُها وعرفتني في هذه المساحة الصغيرة وكوّنا في
الأرض الترابية حلقةً دائريةً أو شبهها.. نتحدث عن الماضي وعهدٍ لنا كان لنا في
أرضهم خلاله سكنٌ وعملٌ وتعليمٌ واستقرارٌ نسبيٌّ.. وكلُّ لسانٍ تشكو الزمان
والأحداث والأحوال.. وقلوبٌ تـحتلّى بالتفاؤل في خطواتها المستقبلية المطلقة..

وأشرفتِ الساعةُ على الثانية عشر والنصف بعد الظهر.. وأعلن توزيعُ الرخص
الرسمية.. وتتابع الأفراد في استلام رخصهم الرسمية.. ووقفتُ مع ذكر اسمي أتناول
الرخصة التي استفرغتُ جهداً ووقتاً وأحاسيسَ موزعةً.. كنتُ أشعرُ خلال تسَلَّمِ
لها بزهُوٍّ داخليٍّ يحتاجُ آلام الأيام الثـمانية كلها.. وتأملتُ وجه زميلي « السهل »
فإذا هو متهللٌ ومشرقٌ.. وعلى يقينٍ بالانتصار في مجهوداته الكبيرة.. ومد يده مهناً
ومحيياً ولـم يُفَلِّتْ يده من يدي.. وإنما جَرَّني إليه لنتخذَ طريقنا بين المتخلفين في
ساحة الأمل الممزوج بالألم.. ودَعَتُ عدداً ممن بقي منتظراً بيدي الأخرى.. ولكثرة
ما تحدثنا بين نقطة المنح وبين موقع سيارات « التاكسي » أنستني الدَفَعَاتُ القلبيةُ
المعبرةُ لدينا ماذا تناولتُ وفي أيِّ حديثٍ تَقَوَّلْتُ ؟ ولكنَّ آثارَ الحديثِ المتواصلِ طَريّةً
في الأفواه وعلى الملامح .

وأخذنا مواقعنا في سيارة الأجرة الصفراء.. وغادرنا مجمع الخضراء نتأمل الانتقال المتدرج للإنسان من مكان إلى مكان.. بينما غُيرنا لا يشعر بهذا الدفع المتصل للانتقال.. حيث قَبَعَ في موقعٍ ما يؤدي دوراً هاماً في أعمال الزاوية المختصة بحياته ومهماته.. ويمهد طريق المرور والحركة لأشباهه وأمثاله ممن لا زالوا على كِفِّ القَدَر المفضي بهم إلى الاستقرار في زاوية محددة من زوايا المساحة الأرضية المشحونة بالتجربة المثلى للأجيال والأُمم .

طلب « السهل » من السائق أن يتجه بنا إلى مكاتب الطيران في البلد لعنا نجد حجزاً مستعجلاً إلى مدينة جدة ؛ ولكن موظف المكتب اعتذر لنا اعتذاراً لطيفاً من عدم الإمكانية ، وبيّن لنا أن الطائرات محجوزة ل مدة أسبوع تقريباً ، فالزمن يقرب من موسم الحج والمسافرون إلى جدة بالآلاف لا محتمل له موسم ، ولا يمكن أن نجد فرصة خلال الأيام السبعة القادمة .

رأيت صاحبي « السهل » قد فتح باب الخروج وولى إلى الشارع العام قبل أن أنهي الحديث مع الموظف المسؤول ، وكأنّ الموظف أدرك عدم الفائدة من مواصلة حديثه عن أسباب الزحام وانعدام التذاكر بعد أن ولى « السهل » ، فودعته وخرجتُ أبحث عن صاحبي المنطلق نحو سيارات الأجرة في خطوات مستعجلة ، وحجز لي موقعا في السيارة وركبنا إلى متزلنا الميمون بالصعيد .

تسم الاتفاق على الرحلة بالطريق البري رغم طوله وبعده ، فالانتظار هنا غير مُجَد ولا مفيد ، وكان هذا أيضاً رأيي مضيفنا الكريم وكثير ممن حوله وحولنا .

وصلينا الظهر لنقوم بحزم الأمتعة واستكمال ترتيب الاحتياجات ، وجُهِّزَت لنا سيارة صاحب المتزل لتُقلّنا إلى موقع السيارات المغادرة من مدينة نجران إلى جدة والطائف . وكان وداعاً حاراً وكلّ مات دارت بيننا وبين أولئك الرجال الكرماء الذين يقدرون الإنسان ويحبون الخير ويتسابقون إليه ، وشددتُ على يد مضيفنا الفاضل

وتعانقنا على بركة الله وحبه ، واستودعتُ الله دينه وأمانته وخواتيم عمله ، وركبتُ مع زميلي السيارة الصغيرة عبر الشوارع الجميلة التي حفظنا دقائقَ موجوداتها لكثرة ترددنا ومرورنا عليها .

وكان الإحساس يتشابه في عَدَّةِ التنازليِّ مع خروجنا من مركز الخضراء ونحن نودع الظواهر والشخوص والأماكن توديعاً بطيئاً يتساوى مع سرعة السيارة واتساع نظر العين إلى محتويات الأفق .

ل سم نقف في نقطة السيارات المسافرة إلى جُدة أكثر من نصف ساعة تقريباً حتى امتلأتُ مقاعدُ « التاكسي » بالعدد المطلوب من المسافرين ، وقد ل سمحتُ « السهل » منذ أن حَطَطْنَا الأدواتِ في مخزن السيارة وهو يحَدِّقُ النظر في فردين شاء الحظ أن يكونا معنا في ذات السيارة المسافرة ، وعرفتُ أن إحساسه قد تحرَّك نحوهما ، وأنه لا بد لنا من قصةٍ تظهر بعد هذا الاستدعاء المغناطيسي ، وصدق الحدس حيث ت سم التعرف عليهما قبل حركة السيارة في منطلقهما الطويل بفضل انفتاح « السهل » وخبرته في سبر غور الأفراد ولو كانوا صامتين .

أسدلتِ الشمسُ ثوبَ المساء على محياها الصبيح ، وامتلا الأفق بصفرةٍ حالمةٍ جميلةٍ تتخلَّلُها التكوينات الغمامية الجميلة ، وأَعْتَمَ المكانُ تحسُّباً لاختفاء الشمس المكدودة من متابعة رحلتنا منذ الصباح الباكر ، وكأنها قد اطمأنت على وجودنا في سيارة الأجرة المغادرة إلى الطائف وجُدة ، ول سم يعد لها في محيط الظهور من حاجة ، فغابت مُودَعَةً لنا يوماً حاسماً وجميلاً ورحلةً موفقةً لطيفةً .

انطلقتِ السيارةُ من نقطتها الأولى في طريقٍ معبَّدٍ تحيط به المساكن والأشجار والحدائق الظليلة.. وتفوحُ في الأجواء رائحةُ الشجيرات الندية وعبير زهرها الفواح ، فتُدْكِ القلبَ وتُنشِطُ الفِكرَ وتُنمِّي في القلب دفْعاً حالاً ماً جميلاً .

ومررنا على مجمع سكيّ : نـ ي تحت سَفَح جبلٍ عريضٍ من الزنك والأخشاب..
قيل لنا : إنه مجمعُ المهاجرين من أبناء جنوب الوطن الذين شرّدتهم الحروب والتغيرات
الأخيرة في البلاد منذ قيام الثورة المسلحة والاستقلال السياسي .

إنه منظرٌ كثيبٌ ومؤلمٌ للغاية.. فكم للإنسان الجنوبي من غربةٍ وكربةٍ وهمٍّ
وشتاتٍ وتمزقٍ.. لقد آل المواطن من جنوب الوطن بعد التغيرات الجديدة إلى حالٍ
غير محمود في الداخل والخارج.. أُودى بالأعداد الهائلة من سكان البلاد إلى الهروب
بأنفسهم وبأهلهم من حروبٍ طاحنةٍ وفتنٍ أهليةٍ مدبرةٍ ومذابحٍ داميةٍ تخدم رموز
المصالح المغلفة بأغلفة المسئوليات وحب الأوطان المزيف.. لقد أثّرت هذه الهجراتُ
المتتالية على القوة البشرية والصناعية والزراعية في مبسوط الأرض الطيبة..

وخرجتُ من همّي بحديثٍ أثاره زميلي « السهل » مع رفيقيه الذين تعرّف عليهما
آنفاً وكانا يسردان مواقف الماضي المؤلمة في قصة رياح التغيير العاصفة في المساحة
الجنوبية البكر.. وكان أحدهم من مدينة شبوة بالـ محافظة الرابعة يتدفق حديثه المأ
وحرقةً وهو يروي هجرته من بلاده مرغماً إلى حديث الغربة الذكريات .

وتداخلت الأحاديث والتعبيرات والأخبار والحكايات.. واشترك مع الجميع سائقُ
«التاكسي» النجرائي والذي لفحته حرارة الحديث عن الغربة والهجرة والنكبة المدمرة
لأمةٍ بأسبابها.. فنشطت كوامنه العاطفية يواسي ويخفف بعباراته الآلام والذكرياتِ
القلقة التي صبغت الجوَّ المحدودَ بين أركان سيارته الصفراء .

ليلٌ طويلٌ مرَّ على ركبنا الصغير المتحرّك في طريقٍ جبليٍّ متعرجٍ ينخفض حيناً
وينبسط في بعض الأحيان انبساط السهول الفاصلة بين المرتفعات والهضاب ،
والركب بين الذكريات والأخبار والحكايات ، ونقاشٍ حول بعض المسائل العلمية
والفقهية خصوصاً عن أحكام الحج والعمرة .

وكنْتُ رَغْمَ اِطْلَاعِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ فِي مَبَادِي هَذَا التُّسْكِ الْعَظِيمِ إِلَّا أَنَّ التَّجَرِبَةَ الْعَمَلِيَّةَ الْمُوثَقَةَ لِلْحِفْظِ النَّظَرِيِّ مُنْعَدِمَةٌ تَحَامًا ، وَلِذَلِكَ فَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ الرِّكَّابِ يَصِفُونَ الْمَنَاسِكَ وَيَتَحَدَّثُونَ عَنِ الْأَحْكَامِ وَالسَّنَنِ وَالْوَاجِبَاتِ بِطُلَاقَةٍ وَيُسْرٍ لِكَثْرَةِ تَرَدُّدِهِمْ عَلَى الْحَجِّ وَمَنَاسِكَهِ .

وكنْتُ أَلَا حِظُّ بَعْضِ الْأَخْطَاءِ الْفَقْهِيَّةِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا الْمُتَحَدِّثُونَ فَأُثِيرُ حَوْلَهَا سُؤَالَ اسْتَقْيٍ مِنْهُ أَبْعَادُ الْمَعْرِفَةِ فِي الْمَسَائِلِ حَتَّى لَا أُصْطَدِمَ بِفَتْوَى مَذْهَبِيَّةٍ مُوثَّقَةٍ لَا أَعْرِفُهَا ، وَكَانَ حِوَارًا شَيْقًا وَمُفِيدًا .

مَرَرْنَا عَلَى عِدَّةِ نِقَاطٍ لِلتَّفْتِيشِ .. وَعَلَى قَرْيٍ صَغِيرَةٍ وَمَدَنٍ شَبِهَ كَبِيرَةٍ مُتَنَازِرَةٍ عَلَى الْهَضَابِ وَالسَّفُوحِ .. وَقَدْ نَقَفَ فِي بَعْضِ الْقَرْيِ لِشَرْبِ الشَّايِ وَاسْتِرَاحَةِ الرِّكَّابِ .. وَفِي قَرْيَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقَرْيِ الصَّغِيرَةِ كَانَتْ الْأَسْوَاقُ مُزْدَحِمَةً وَالْحَرَكَةُ بَادِيَةً لِلْعِيَانِ .. تَبَيَّنَ أَنَّهَا قَرْيَةٌ اسْتِرَاطِيஜِيَّةٌ وَهَامَةٌ .. وَقَفْتُ بِنَا السَّيَارَةِ أَمَامَ إِحْدَى الْمَقَاهِي الْمَزْدَحِمَةِ وَذَهَبَ الرِّكْبُ لِاخْتِيَارِ مَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَشْرَبُونَ .. وَأَثَارَ دَهْشَتِي تَجَمُّعَ النَّاسِ عَلَى جِهَازِ التَّلِفِزِيِّونَ وَارْتِفَاعَ صَخْبِهِمْ وَصَرَاحِهِمْ ..

وَاسْتَوْنَفَتِ الرَّحْلَةُ مِنْ جَدِيدٍ .. وَقَدْ مَرَّ نِصْفُ اللَّيْلِ وَأَشْرَفَتِ السَّاعَةُ عَلَى الْوَاحِدَةِ .. وَلَمْ يَلْبَثِ الرِّكْبُ أَنْ تَنَاوَلُوا أَطْرَافَ الْحَدِيثِ مِنْ جَدِيدٍ عَنِ الْمَصَارَعَةِ وَالْهَوَايَاتِ وَكَأَنِّي بَالًا مَجْمُوعِ الْأَوْسَعِ مِنَ النَّاسِ هُنَا يَغْرَمُونَ بِهَذِهِ الرِّيَاضَةِ الْعَنِيفَةِ .. لَقَدْ كُنْتُ أَحْبُّهَا حُبًّا جَمًّا فِي عَدَنَ .. وَكُنْتُ أَتَفَرَّغُ لَهَا تَفَرُّغًا كَامِلًا .. وَكَانَ عَمِي الْمَقِيمُ فِي عَدَنَ يَتَحَمَّسُ لَهَا حِمَاسًا عَجِيبًا حَتَّى أَنَّهُ يُوزَعْنَا إِلَى فَرِيقَيْنِ عِنْدَ بَدَءِ الْمَصَارَعَةِ يَكُونُ هُوَ مَعَ فَرِيقٍ يَشْجَعُ لَاعِبًا ضِدَّ الْآخَرِ .. وَيَبْدَأُ الْحِمَاسَ وَالتَّشْجِيعَ وَالْمُنَافَسَةَ .. وَكَأَنَّنَا فِي الْحُلْبَةِ حَقًّا ..

وَقَدْ كَانَ عَمِي فِي مَجْمُوعٍ مِنْ أَقَارِبِي هُنَاكَ وَحِيدًا فِي هَذَا السَّلُوكِ الرِّيَاضِيِّ الْعَنِيفِ وَهَذَا الْحِمَاسِ الْعَجِيبِ .. أَمَا هُنَا .. فَمِنْذُ أَنْ وَصَلْتُ إِلَى نَجْرَانَ وَأَنَا أَكَادُ أُؤَكِّدُ

الجرثومية المرضية التي أصابت العقليات الكثيرة بهذه الرياضة الى جانب كرة القدم.. حتى إنها لتأخذُ عليهم من أوقاتهم شيئاً كبيراً ونصيباً عظيماً.. إضافةً إلى ما يترتب عليها من ضياعٍ لأوقاتِ صلواتهم وعباداتهم ومذاكراتِ طلابهم.. وصراخٍ عنيفٍ ينشُبُ بين أسرهم وعائلاتهم حول الفرق الرياضية وأفراد اللاعبين..

بدأ النعاس يغزو مَرَكَبَتَنَا الصغيرة.. وبدأت آثار تخدير الهواء السائب من نوافذها يداعب أجفاناً طال تركيزها على الأضواء في ظلام الوهاد والنَّجاد..

وفي نقطة من نقاط التفتيش التي وقفنا أمامها للإجراءات الضرورية المتبعة طال الانتظار وكثر الـ محيص والتنقيب.. وكنتُ متكئاً في مؤخرة السيارة مكتفياً بزميلي في فتح الأدوات والاحتياج.. ولكن التأخير المريب الذي ظهر على المعاملة مع الركاب ذوي الأدوات جعلني أفتح الباب وأخرج لأشاهد ما يدور.. رأيتُ الجنديَّ قد فتح حقيقتي يُفتِّشها.. كان قلبي يدقُّ.. ليس من الخوف.. ولكن خَشْيَةً على مُذَكِّراتي التي جمعتُ فيها بعض ملاحظاتي وأعمالي وأشعاري.. أن تقع في يده فتطول الملاحظات والتأويلات.. **ولكن حصل المذخور..** كنتُ أراقب من بعيدٍ وزميلي يقوم بمساعدة الضابط المفتش فرأيتُه حمل المفكرة الزرقاء وبدأ يتصفَّحها من أولها.. كنتُ أستمعُ للمواضيع المكتوبة مع تقلب صفحاته.. ولمحتُ صاحبي «السهل» يَغْمُرُ لي بعدم التدخل وأن أظل بعيداً.. وحسناً فعلتُ في استجابتي.. توقَّف الضابط على صفحة بها قصيدة شعرية وقال مخاطباً لصاحبي :

- أنت شاعر ؟

فردَّ عليه :

- هكذا.. نكتب ولا نعرف شيئاً..

واستهمر يقلب الصفحات حتى وقف على دراسة لقصائد الحبيب عبد الله بن علوي الحداد كنت قد كتبْتُها إبَّان مكثي في مدينة الحديدة.. وكأنه لم يَفْقَهُ منها شيئاً أو لم يقف خلالها على شيءٍ يلائم ما يبحث عنه أو يظنه .

وأخيراً أعاد الكتاب إلى مكانه في الحقيبة وأنهى تقليب الثياب والأدوات والهدايا وهويات الأفراد ، ثم طلب منا إعادة كل شيء إلى مكانه في السيارة ، وركبنا سيارتنا وقد آذن الفجر بالظهور ، وسألني صاحبي عن محتوى المذكرة التي وقعت في يد الضابط ، فأخبرته بمواضيعها ، فقال لي : كنت أخشى أن يكون فيها شيء يريب ، فقد مر وقتٌ طويلاً بيننا حول الهوية الشخصية حتى ضقتُ ذرعاً بأسئلته ، والحمد لله الذي سلّم .

قلت له :

- لكن لماذا غمزتني بالابتعاد حالة تفتيش المذكرة ؟ فقال :

- لأنني أخبرته أن محتويات الحقيبة هي لي وليست لغيري ، وستكون مصيبةٌ أخرى تفتح تهمةً من العدم لو تحدثتَ أنت عن محتويات حقيبةٍ ليست لك في وجهة نظره .

شعرتُ بأن الكلام قد يكون أحياناً سهماً يوجهه المرء إلى نفسه إن زلَّ به اللسان في مواقف كهذه .

وحططنا الرحال مؤقتاً في قريةٍ صغيرةٍ لم أعرف اسمها ، وبعد صلاة الفجر واصلت السيارة مسيرها نحو مدينة الطائف .



الطريق إلى الحجاز..

أشرقت الشمس بثوب قشيب على ركبنا المتأبر وهو يطوي الطريق المعبد خلال شوارع مدينة الطائف الجميلة.. مدينة حديثة البناء يان في غالب عمراتها وشوارعها.. ويبدو عليها جلال الصباح المتزيي بصفرة الأفق الحالمة.. يضرب

بصفرتة الجميلة على رؤوس الجبال المعشبة.. ويرتد إلى العين محدثا حالة من النشوة والارتياح .

وقفت بنا السيارة في مجمع عام للسيارات القادمة والذاهبة إلى نجران.. ولم يوافق السائق على نقلنا إلى حيث تقع سيارات الأجرة الذاهبة إلى جدة.. حيث ذهب يسجل رقم سيارته في مركز التأجير ((الفرزة)).. وحملنا أمتعتنا إلى الشارع العام حيث استوقفتنا سيارة أخرى حملتنا إلى ((مركز الطائف - جدة للنقل والموصلات)) وهناك أخذنا مقعدي السيارة الأماميين لنتجه إلى مدينة جدة .

وفي الموقع المزدحم بالسيارات والأفراد شربنا كوبين من الشاي قبل أن نواصل رحلتنا الأخيرة.. القلب يستشعر البلوغ إلى برّ الأمان كما فاح عبير الكلمات المبشرة بالوصول.. وكل ما وقعت العين على لوحة التحديد لمسافات في الطريق السريع المنظم .



الدخول إلى أرض الحرمين..

هذه عقبة ((الهدا)) الشهيرة.. ارتفاع شاهق فوق الأودية والسهول.. نُحِتَتْ في جوانبها طريقٌ فسيحةٌ معبدةٌ تتسع لأكثر من سيارات ثلاث في الاتجاه الواحد أحياناً..

يدور بخُلدي من أعلى قمة الشاهق الجبلي قدوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف مع صاحبه ورفيقه زيد بن حارثة يطلب النصرة من ثقيف..

ولكن أين مرّ عليه الصلاة والسلام ؟ فهذه الجبال الشاهقة التي تربض كالسد المنيع بين الطائف والحجاز تكاد تملأ الأفق من كل اتجاهاته.. أيُّ ممرٍ وأيُّ مسلكٍ اتَّخذ عليه الصلاة والسلام بين هذه الصخور المخيفة .

طريقاً لا شك أنه يحمل الذكريات العظيمة لكل مؤمن يجعل من آثار النبوة منهجاً وتذكيراً ، ففي كل موقعٍ من هذه الرقعة الكبيرة ملاحم وتاريخ.. وكان رجالٌ يستحقون صفات الرجولة.. ملؤوا الأرضَ سلاماً وأمناً وعدلاً حاكماً ودينياً ومسؤوليةً.. من هذه الأرض الجدباء والأمة الأمية سطع نورُ الرسالة الذي ملأ الآفاق بالهدى واحترار فيها العلماء والمفكرين.. وحاربها المنافقون والمشركون.. { يُريدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمِّمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } .

سألت رفيقي « السهل » عن خواطري المتدفقة الجياشة الملحة عليّ في معرفة الكيفية التي وصل بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم إلى هذه المدينة الشاهدة على ذاتها يوماً بالجفاء وعدم الوفاء ، فقبل لي - ولست متذكراً من القائل حينها - :

- إن للطائف طرقاً عديدة.. منها طرق تتخذ من الأودية سبيلاً للوصول ؛ ولكنها بعيدة عن هذا الموقع الجبلي..

وقال آخر :

- إن هذه الطريق التي شقّت في الجبل إنما هي طريقٌ حديثةٌ غرضها الوصول إلى المدينة من أقرب الاتجاهات.

لقد بذلت الدولة في إصلاح هذه الطرق وبناء الجسور والقنوات المائية أموالاً طائلةً، وذاك واضحٌ للعين من خلال البناء المتين الواسع والخدمة الممتازة التي أدتها شركات الرصف والإصلاح على صعيد المنافسة مع غيرها في إبراز المشاريع على أفضل الكيفيات..

لقد امتلأ صدري بجمال التصميم وروعة التنفيذ منذ أن لمحستُ ذلك في مداخل الحدود الخضراء عندما درجتُ بنا عجلات السيارة المكشوفة خارج الخشبة العسكرية وداخل التركيبات المدنية في الطريق المؤدي إلى نجران وأنا بين السمد والغبار ورائحة الأغنام .

الطريق ما بين الطائف وجدة طريقٌ واسعٌ وفسيح الجوانب يتلَوَّى استجابةً للأرض التي وُضِعَ عليها.. فال مناطق الجبلية عاملٌ من عوامل الانعطاف والالتواء والانحدار والانزواء لطبيعتها . وال مناطق الصحراوية عامل من عوامل الامتداد في الواقع المبسوط على ذات الكيفية القائمة من الصحراء أو الجبال.. فالطريق على غاية من الترتيب والتنظيم والروعة تصميمًا واتساعًا وامتداداً .

ويُعْذِّي إحساسَ المسافرٍ ما لديه من الأشواقِ واللواعج.. فرغم أننا في السيارة خمسةُ أفراد.. إلا أن الرؤيةَ البصريةَ لـ موجودات في خارج المركبة الصغيرة تختلف باختلاف الأحاسيس المخزونة في الأفئدة.. فالرؤية في عيني هي ثمرة الإعداد القلبي والاستعداد النفسي.. وال موجوداتُ الخارجية هي في طبيعة تكوينها ووجودها مشابهةً لألوانٍ كثيرةٍ كنتُ قد شَهِدْتُها في تجربتي السالفة.. ولكن الجديد هو توزيع هذه الموجودات على هذه المساحة الأرضية.. وهذا هو سرُّ جاذبية الجديد في التنقل البصري من مكان إلى آخر.. وتَخَفُّ هذه الجاذبية كل ما تكرر الإبصار وتردد الفرد على هذه المواقع حتى صارت مألوفةً للعين ، ومرسومةً في تخطيط الذاكرة الجامعة لأشتات الظواهر والمعاني والمفاهيم والخبرات والشخص..

أشار رفيقي إلى مساحة من الأرض ، وقيل لي : هناك جبل عرفات.. الموقع العظيم الذي تَحَنُّ إليه الأفئدةُ وتُدَمِّي الأطرافُ وتُكَلِّم الجوارحُ.. فتحت بصري على مدى اتساع الحَدَقَات لـتحتلني من مساحة النور الكامن في هذه البقعة المباركة.. مساحةً واسعةً ممتدة الأطراف والجوانب تنتهي بسلسلةٍ من الجبال البعيدة وقد توزعت خلالها ظواهرٌ متنوعة.. منها ما هو طبيعيٌ.. ومنها ما هو صناعيٌ ابتدعته يد الإنسان.. فمساحةُ عرفات.. رغم فراغها من كل حركة إنسانية بادية للعيان إلا أن بصماته

ظاهرةً على الواقع بمجموعه.. الخيم وال مباني الصغيرة.. وال مسجد الفسيح ذو
المنارة المرتفعة.. قيل : إنه مسجد نمره الذي له في كل عام مظهر ومقام ونسك..
وهناك مزدلفة.. ويتراءى مسجدها الواسع بمنارته وقبابه.. وحوله المباني والخيم..
وسيارات وأفراد.. واختفى المنظر باعتراض هضبة جبلية لتبدو من جهة أخرى آثار
ومعال سم منى.. أرض الجمرات وأربع من أيام التشريق .
ولا أستطيع أن أثبت حقيقة ما يخالط ذاتي خلال هذه اللحظات العظيمة المحركة
في ذاتي بمجموعها أسمى الأحاسيس الروحية.. وتنشط العقلية النابضة لتسجيل
الصور وال معلومات مع الأحاسيس والانطباعات.. تُدرجها إدراجاً لطيفاً ومتنامياً
ومرتباً في قنوات الذاكرة المبهورة..

رفيقي المجاور لي في المقعد يسرد لي باختصارٍ شديدٍ معلوماته التي تتلاحق وتلاحق
المنابر المتتالية ، ويغذيها بالسرعة اللفظية تأثره بالسرعة الفائقة التي تطوي بها السيارة
الطريق ، وأشار لي صاحبي أن أمدً بصري لأرى أرض الله الحرام.. مكة المكرمة..
منازلها.. جبالها.. يا للعظمة.. هذا هو الكيان والوطن.. وال منبع والتاريخ
والوجدان.. وال منطلق والغاية.. هذه هي الأم التي أَلَقَتْ بأفلاذ أكبادها إلى كل
أنحاء العالم.. وعلى ذات المقدار في العطاء.. ها هي تستردُّ يوماً بعد يومٍ فروعاً
من أصولها.. حُجَّاجاً ومعة حميرين ومهاجرين..

أل سم يهاجر منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسل سم يوماً إلى المدينة المنورة ؟
أل سم يهاجر منها الصحابة الأتقياء إلى الحبشة ؟ أل سم يهاجر منها أبوبكر الصديق
هروباً بدينه إلى طريق اليمن فلقية ابن الدُّعْنَة وأعاده في إجارته قبل أن يصل إلى حيث
يريد؟ أل سم يهاجر منها أتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسل سم إلى المدينة قبله
وبعده ؟

ومن تلك الهجرات المباركة الأولى تتالت هجراتٌ لاحقةٌ من حيث رضي المسلمون وجودهم وكيانهم.. شعارهم قوله تعالى : {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} عطاءً وأخذً.. وأخذٌ وعطاءً.. ومكةُ أرضُ المعاد والأمن والإيمان وموقع البيت وزمزم وال مقام.. والوجهة التي إليها يومئ كل مؤمن بالله بوجهه وقلبه..

واستقبلتنا مساحاتٌ جديدةٌ من الأرض الفسيحة الجرداء.. وأودية وهضاب ومرتفعات.. قيل لي : إن هناك وادي فاطمة.. وفي الجهة المقابلة نهاية الأرض الحرام.. الحُدَيْيَّة.. حيث اجتمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بموفود المشركين للتفاوض حول الدخول إلى مكة.. وفيها بيعة الرضوان.. الفداء والإخلاص.. وتتداخل الذكريات وال معلومات وتنشط الذاكرة لـ حمدٍ الوُجْدَانِ بما خَزَنَتْهُ خلال مرحلة التجميع.. ليكون رافداً حياً يربط بين الرؤية البصرية ومادة التاريخ.. فالأرض هي الأرض.. وال موجودات الطبيعية هي ذاتها مع فارق النحت والتطبيع للأحداث المستجدة ورصف الطريق وبناء الجسور والقنوات..

شعرتُ أن السيارة قد ارتفعت على جسر صغير فأشرفتُ لأرى.. فقال لي زميلي:
- انظر... هذا مخيمٌ عسكريٌّ ونقطةٌ تفتيشٌ ولائحةٌ كتب عليها «للمسلمين فقط»، إنه آخرُ حدٍّ من حدود الأرض الحرام لا يدخله غير المسلمين.. ومهمة الجنود ردُّ كلٍّ أجنبيٍّ عن هذه الأرض الطاهرة لـ يتخذ طريقاً أخرى..

وأحسستُ بالارتياح وال حمّةٌ والنعمة.. فال مسلم وحده يشعر بأنه متفردٌ بهذه الأرض المباركة.. لـ ما وفقه الله إليه من الإسلام والإيمان.. فقلتُ مطمئناً :
- { الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله }..

بالطبع لا سم نكن على طريق نقطة التفتيش.. فنحن قادمون من الطائف.. والنقطة تحتضن الطريق المؤدي إلى مكة المكرمة.. ولكننا نحاذيها مروراً على الجسر المتفرّع الذي يربط بين جهات عديدة...

ظهرت لنا على الطريق الفسيح لائحات الدعايات التجارية لأنواع البضاعات والصناعات موزعة على جانبي الطريق بين اللائحة الكبيرة والمتوسطة والصغيرة.. وبين الحين والآخر تظهر لائحة المسافات التي كتبت عليها المسافة التنازلية المحددة انطواءً الكيلومترات بين الطائف وجدة.. وبين مكة وجدة.. حيث اندمجت الطريق وصارت بعد عبورنا على الجسر ومركز التفتيش طريقاً واحدةً كلّها تؤدي إلى جدة.. وعلى الطريق المحاذي تشاهد السيارات الذاهبة إلى مكة والطائف.. وأعدادها تفوق التصور العددي المتوقع في ذاكرتي.. ومررنا على مبان متفرقة ومحطة للبترين.. ولائحة هَزَتْ كَيَانِي حَقّاً كُتِبَ عليها «المطار» !

شعرتُ رغم جهلي بالطريق وما تبقى منه بالتحديد أننا وصلنا إلى الغاية القصوى من رحلتنا الطويلة.. قال لي صاحبي : هذه لائحة المطار.. لكننا لازلنا على مسافة بعيدة من جدة..

قلت : وما فائدتها إذن ؟

قال : لأن الحجاج يخطئون الطريق فتأخذهم الطرق الفرعية التي تذهب بهم إلى المدينة المنورة أو بحرة.. أو تعيدهم من حيث جاؤوا ويذهب وقتهم هَدَراً.. فلائحة المطار تحدد لهم الطريق الرئيس إلى وسط العاصمة الكبيرة.. جدة..

وما أكثرُ اللوائح المنظمة للسير في هذه الطريق.. ومن أهمها لوائح توجيه السائق..

وقد يكون مع المستعجل الزل ..

تمهل.. أولادك في انتظارك..

القيادة فن وذوق وأخلاق..

لا تسرع فالموت أسرع..

الطريق ملك الجميع..

التزامك بإشارات المرور دليل على وعيك..

ويبلغُ الانبهارُ مداه بفردٍ مثلي قَدِمَ من عالٍ مِ الخوفِ.. وَتَنَقَّلَ في أحوالِ الوَجَلِ
والتَّرَقُّبِ والْقَلَقِ.. فيرى نفسه مع الأمنِ والاطمئنانِ أَقْرَبَ مِنْ قابِ قَوْسَيْنِ أو
أَدْنَى..

وظهرت مباني المدينة المرتقبة.. عروس البحر الأحمر..

قال لي رفيقي « السهل » وقد اتسعت حُدُوقُهُ أكثر مما أَلْفُتُهُما :

- انظر.. هذا الجسر القادم هو آخر التفرعات ، ومنه ندخل إلى
الطريق الرئيس، وتلك بيوت الإسكان الحكومي تبنيتها الدولة لتخفيف
وطأة الحاجة للمساكن .

وأخذني العجب من كثرتها وفخامتها واتساع رقعة الأرض التي استغلت لإقامتها..

وأخذ زميلي يسردُ المعلوماتِ عن الإسكان والإيجار وكثرة المنازل وتعدد مواقع
التشييد العمراني في العاصمة ونواحيها..

وصرنا وجهاً لوجهٍ أمام الشارع المؤدي إلى وسط المدينة.. واستغرقت في المشاهدة

حتى كاد زحام المرئيات يعتِم عيني.. وضحك « السهل » بملء فيه وقال :

- لا تعجل.. ستكون هذه الأشياء معتادة بالنسبة إليك خلال أيام قلائل .

وخلال مسير السيارة في الشوارع الرئيسة والمتفرعة لِم أستطع أن أحدد

الاتجاه ولا الغاية المقصودة.. وإنما عرفتُ أنني قد دخلتُ « دائرة الأمن المرتقبة »..

وأنني على موعدٍ قريبٍ مع أهلي وأسرتي جميعاً .



نهاية الطريق..

وقفت السيارة بنا تحت جسرٍ كبيرٍ.. وذلك بعد إشارةٍ من « السهل » بالوقوف..
ونزلنا نحن وأدواتنا على جانب من الطريق.. وأخبرني صاحبي أن وجهتنا على
مقربةٍ من موقعنا.. وأشار إلى سيارة « التاكسي » أن تقف..
وسرنا في شارعٍ فسيحٍ بدأ يجاورنا فيه جسرٌ ضخماً حتى مسافةٍ ليست بالبعيدة إذ
قال لي صاحبي :

- هذا شارع المطار..

وصدَّقَتْهُ اللوحةُ التي مررنا عليها.. وطائرةٌ صغيرةٌ رُكِّبَتْ على قاعدةٍ من الإسمنت
المسلح رمزاً للطيران.. ولَمْ أَتَبَيَّنْ بعد ذلك من المعالِم شيئاً لكثرةٍ تداخلها في
الذهن وجَدَّتْهَا على العين.. حتى دخلت بنا السيارة في شارعٍ صغيرٍ ينتهي بمسجدٍ
عليه منارةٌ خضراءُ صغيرةٌ.. قال لي صاحبي :

- هذه هي « الشَّرَفِيَّة ».. وهذا مسجد رمضان..

دارت السيارة في الشارع الصغير ومنه دلفت إلى شارعٍ آخرٍ فرعيٍّ ووقفتُ أمامَ
عمارةٍ ملونةٍ ظهر على مقدمتها اللون الغامق البني.. ومدخلٌ رُصِفَ بالمرمر
المنوع.

ونزلنا هناك حيث أخرج « السَّهْلُ » النقودَ وسلَّمها للسائق بعد استفراغ
الأدوات..

صعدنا على سُلَّمِ العمارة وقلبي يَخْفَقُ خفقاناً عجبياً ويعتريني إحساسٌ غريبٌ..
وضغطت رفاً على « السهل » على جرس الشقة رقم ٤ ، وفي أعلى الباب كتب بخطٍّ
جميلٍ.. « متزلِّجُ الإمام المسجد السيد علي بن أبي بكر المشهور ».. وانفتح الباب وأطلَّ
منه ولدي نزار.. وكان أولَ من سلَّم عليَّ واحتضنني.. وجاء أبي يستقبلني استقبلاً

لا نظير له ولا مثال ولا يتكرر مرتين على الإطلاق.. دَفَنْتُ حينها هَمِّي وَأَلْهَمِي
وَكَرْبِي وَغُرْبِي فِي صَدْرِ أَبِي.. وَسَأَلْتُ الدُّمُوعَ مِدْرَاراً.. وَعَجَزَتِ الْأَلْسُنُ عَنْ
التعبير بأكثرَ من قولها : « الحمد لله.. الحمد لله » ..

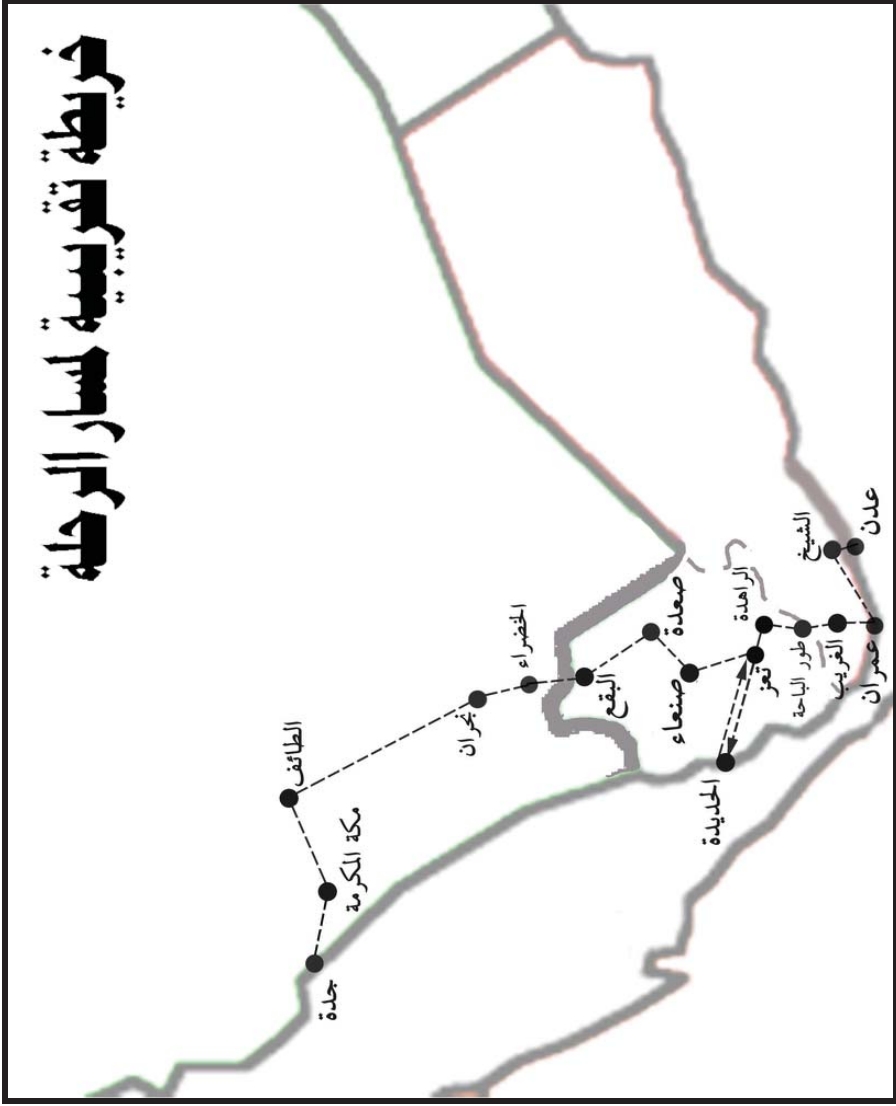
واحتضنتُ أطفالي ، وكان ابني نزار يبكي بكاءً حاراً أشعرتني بإحساسه
العميق وإدراكه لما أنا وهو وكلنا فيه من شوقٍ ووُجْدان..

ثم أمي العزيزة وأخواتي.. ومسحتُ دموعي الكثيرة.. وكانت دموع فرحٍ وارتياح..
واغتسلَ عنها هَمٌّ وَغِشاوَةٌ جعلتني أتفحصُ الجميعَ وأقرأ ملامح الجميع.. فقد
حُرِّمَتْهَا سنينٌ عديدة..

وتذكرتُ وأنا قابعٌ بجوار أمِّي كلَّ حمةٍ أبي عبرَ الهاتف وأنا في نجران وقوله :
« الحمد لله الذي بنعمته تَتَمُّ الصالحاتُ » ..

وتلحَّح لي بالعزم في رسالته الأخيرة قبل مغادرتي الدائرة الحمراء.. وقوله :
إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَرَدَّدَا

وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ
وآخرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
تَمَّتِ الرحلةُ بعونِ الله الكريم



الفهرس

٥	ال مقدمة
١٧	القسم الأول - من عدن إلى الحديدة
١٨	التقرير الأول
٢٠	استهلال..
٢٠	البداية..
٢٢	الانطلاق..
٢٥	نحو البحر الأحمر..
٢٧	ال مرور على الصراط ..
٢٩	الروتين.. ثم القرار..
٣٢	آخر مقابلة..
٣٤	السباق..
٣٥	الاطمئنان المغلف بالخوف
٣٦	السائق.. المغامر المحترف..
٣٩	من « الوزف » .. إلى الدخان..
٤١	دع الأقدار تفعل ما تشاء
٤٢	قرية السائق..
٤٧	الشاب الحصيف..
٤٩	المرحلة الأخيرة..
٥٠	الخروج من الدائرة الحمراء..
٥١	الحدود..
٥٥	الدليل الأحق..
٥٧	الدليل والحمار..
٥٨	إلى تعز..

٦١	سوق الجمعة..
٦٢	الراحدة..
٦٥	إلى الحديدية..
٦٦	أبناء العم..
٦٧	الحديدية..
٧٠	مكتب البريد
٧١	مشكلة الحضارة والتمدن..
٧٢	القسم الثاني - من الحديدية إلى الحجاز
٧٣	التقرير الثاني
٧٤	في انتظار البرقية..
٧٧	((السهل)) الرفيق.. طول الطريق..
٨٢	نحو الدائرة الخضراء..
٨٦	لا بد من صنعا وإن طال السفر..
٩١	في الطريق إلى ((البقع)) ..
٩٤	من ((الوزف)) إلى ((السرجين)) ..
١٠٠	((الخضراء)) ..
١٠١	بركة الجمعة..
١٠٣	في ((الصعيد)) ..
١٠٧	في نجران..
١٠٨	في السوق..
١١٣	الأخدود..
١١٥	نبش الذكريات..
١١٦	الضيف..
١١٩	الإجراءات في ((الخضراء)) ..
١٢٩	العود إلى نجران..
١٣٢	إلى الحجاز..

١٣٩	الطريق إلى الحجاز..
١٣٩	الدخول إلى أرض الحرمين..
١٤٦	نهاية الطريق..
١٤٨	خريطة تقريبية لمسار الرحلة
١٤٩	الفهرس

